نبض اليراع

مقالات تربوية واجتماعية

بقلم

عيسى بن سليمان الفيفي

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

راجعه وقدم له

الباحث والمؤرخ الأستاذ

حسن بن جابر الفيفي

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ / ٢٠١٨م

ⓒ دار الصميعي للنشر و التوزيع ، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفيفي ، عيسى بن سليمان
نبض اليراع : مقالات تربوية واجتماعية. / عيسى بن سليمان الفيفي .- الرياض ، ١٤٤٠هـ
١٨٠ ص ؛ ..سم

ردمك: ٤-٧٤-٨٢١٩-٦٠٣-٩٧٨

١- المقالات العربية أ.العنوان
ديوي ٠٨١ ١٤٤٠/١٨

رقم الإيداع: ١٤٤٠/١٨
ردمك: ٤-٧٤-٨٢١٩-٦٠٣-٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عندما أحسن الظن بي المؤلف الأستاذ عيسى بن سليمان الفيفي، وعرض علي بعض المسودات من مؤلفاته المتنوعة، لقراءتها ومراجعتها، قرأتها بكل شغف ونهم، فوجدت أنه قد اختار للقراء من كل بستان وردة، وبالذات في هذا الكتاب الجميل المتنوع الذي أنصح بقراءته، فهو صاحب قلمٍ سيّال وقلمٍ مبدع في كتاباته.

فجزاه الله خيرًا على حسن صنيعه ، وزاده توفيقًا ونجاحًا وإبداعًا وتألقًا.

وصلى الله على نبينا ورسولنا محمد وسلم.

راجعه وقدم له

الباحث والمؤرخ الأستاذ

(أبو سامر)

حسن بن جابر الفيفي

***

مقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على نبينا محمد الأكرم، المؤيد بكتابه المبين، المتمسك بحبله المتين وعلى أله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فالقلم له أهميته في الكتابة ونشر المفيد من العلوم الشرعية وغيرها، وهو السلاح الذي لا يكسر، وهو السلاح الذي يمضي بدون بكلل ولا ملل، والصحافة الورقية والالكترونية مفيدة في هذا المجال ليكون خصباً جميلاً بما يزرعه القلم.

فإذا جمعنا بين الصحافة الممتازة والأقلام الجميلة خرجنا بفائدة عظيمة ومفيدة نستفيدُ منها ويستفيد منها القراء الأفاضل.

فللقلم السيّال مكانته في المجتمع لأنه يقف وراءه كاتبٌ رائدٌ يعرف كيف ينتقي الحروف والكلمات، والقلم الأعوج دائماً مقطوع الخير والبركة في حروفه ومفرداته، لأنه كسر بركة قلمه بزعاف عباراته ونتنها. . والله المستعان وعليه التكلان.

هذه مدونة مقالاتي وذكريات قلمي على مدى عشر سنوات من الكتابة في الصحف.

فقد بذلت في هذه المقالات أكثر وقتي وقصارى جهدي لأخرج منها بفائدة وثمرة تعود علي بالنفع، واعتمدت فيها على صدق الكلمة والبراءة من المبالغة في كل ما أكتب.

سبب تدوينها:

دونت فيها بعضاً من مقالاتي المنشورة بالصحف وتركت بعضها لما ليس فيه من الفائدة الكبيرة في تدوينه وحفظه، وتكون من باب التدوين النافع والذكرى الحسنة الجميلة.

سبب تسميتها بهذا الاسم:

سميتها: (**نبض اليراع**) لأن القلم هو اليراع وإذا نبض أسال حبره ومداده على الورق الأبيض وأخرج مداد العلم من بطنه، وكتب المقالات والمذكرات وهو مثل القلب ينبض ولا يتوقف، فإذا توقف فسد.

استفدت كثيراً من المقالات في البحث والكتابة والتدوين، ولسنا في غنى عن تدوين ما نحصل عليه أثناء البحث والاطلاع والقراءة وطلب العلم النافع وأثناء المرحلة العملية أو التدريبية أو التعليمية.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

محبكم

عيسى بن سليمان الفيفي

Eisa850@hotmail.com

Eisa850 **تويتر**

Eisa850 **سناب**

Eisa850_ **انستجرام**

لماذا لا نقرأ؟

ابتدأ الله هذه الأمة في كتابها بكلمة أمْريّه (اقرأ)، فكانت اقرأ الكلمة الأولى الموحى بها من الله عَزَّوَجَلَّ إلى رسوله الكريم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليبلغها إلى هذه الأمة لتكون هذه الأمة مميزة وتكون أمة تقرأ ماضيها ومستقبلها وحاضرها وما بين يديها، وتبني حضارتها وتربط بين الماضي والمستقبل، لتصبح أمة اقرأ وأمة القراءة وأمة المجد وأمة التعلم، لكننا وللأسف نجد منها من لا يقرأ مطلقاً، ومن هو مقصر فيها، ونجد من هو مقصر في قراءة كتاب الله تعالى الذي وجب علينا تعبد الله تعالى بتلاوته وقراءته وحفظه.

فاهتمامنا بالقراءة والكتابة والعلم والتعلم لازمة لكل مسلم، فالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ قد امتن على عباده المؤمنين بذلك، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق: ١-٥].

فمِن كَرَمه جَلَّوَعَلَا أنْ علَّم الإنسان ما لم يعلم، فشرّفه وكرّمه بالعلم، فالاستمرار في القراءة وتثقيف النفس لا حدَّ له، ولا يشبع منها قارئ ولا متعلم ولا طالب علم.

قال ابن أبي غسّان رَحِمَهُٱللَّهُ: (لا تزال عالماً ما كنت متعلماً، فإذا استغنيتَ كنتَ جاهلاً).

فالجاهل عدو نفسه، وهو السبب في ذلك لأنه فرط في شيء مهم ومن أساسيات الحياة وهي القراءة، فكيف نعيش بغير القراءة؟

فالقراءة والاطلاع من ضروريات الحياة، فكيف نتعلم ما افترضه الله علينا، بل وكيف نتعبد الله؟ وكيف. .؟ وكيف. .؟

والله إن الإنسان ليحزن أشدّ الحزن لمّا يرى أناس عازفين عن القراءة والاطلاع والبحث في الكتب واقتناؤها، وخاصة من بعض المعلمين الذين هم بأشد الحاجة إلى القراءة والاطلاع ليزدادوا ثقافة ويتسلحوا بالعلم، فوالله لا نلوم من دون المعلم إذا كان بهذه الطريقة بعيداً عن الكتاب.

يقول الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المدرس الذي يقتصر على ما تعلمه في المدرسة، ولا يطالع ليوسع أفقه ويزيد علمه، يتخلف عن القافلة ويصبح بين الطلاب كأنه طالب حافظ للدرس).

فالقراءة ليست هدفاً في ذاتها ولكنها وسيلة إلى العلم والتعلم، وهي مفتاح العلم، وبها تتطور الأمم والحضارات، وهي أهم أهداف المربين والمعلمين والآباء ليربوا الناشئة عليها وعلى حبها.

القرآن الكريم كلام الله تعالى الذي أمرنا بقراءته عبادة لله، صار لا يُقرأ إلا في شهر رمضان فقط، فإذا استمر الحال على ما هو عليه فستنشأ أجيال من المثقفين أو أشباه المثقفين تشقى بهم لغة القرآن الكريم، وسيأتي يوم تصبح فيه اللغة العربية غريبة بين أصحابها، ويبقي الشباب دون ثقافة تبني شخصيتهم، وأصبحنا نرى أجيالاً من الناشئة ومن الطلاب لا يعرفون كثيراً من الأشياء البديهية ويقعون في أخطاء شنيعة سواء في طريقة نطق الكلمة أو كتابتها أو غير ذلك.

فأصبحنا وللأسف نسمى (أمة إقرأ لا تقرأ) أما نخجل من هذه التسمية، ونحن السبب الأول في هذه التسمية، وهي والله انتقاص وتحقير لنا نحن وتقليل من مكانة

هذه الأمة بين الأمم والتي هي أفضلها، فالقراءة شعار هذه الأمة التي بدأت بكلمة: (اقرأ)، والكل يعلم ما مقدار وما يقرأه الغربي عن العربي في العام الواحد.

فالبعض يقول باستهزاء وسخرية: (ماني خبل اشغل نفسي بهذه الكتب) وآخر يقول: (ما صدقت خلصت الدراسة وارتحت من الكتب وأنت تريدني اقرأها) والثالث يقول: (أريد أن أقرأ لكنها ملل وتجيب النعاس)، وفي النهاية تجده جاهلاً ببعض العبادات والأوامر وبعض القصص النبوية والقرآنية، جاهلاً بالسيرة النبوية سيرة أفضل الخلق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فهو عدو نفسه بجهله، لأنه أول ما يقضي على الإنسان جهله، وإذا قيل له: (أنت جاهل) أبدى غضبه واستياءه من هذه التسمية، ولن يرضى به أي شخص مهما كان، فنقول له ادفع عن نفسك الجهل بالقراءة والاطلاع وثقف نفسك بما يفيدك ويرفع من قدرك ومكانتك.

فوالله لا شيء أحلى وألذّ من القراءة ومطالعة الكتب، ومعرفة كل جديد منها وقراءة التاريخ والعلوم الدينية.

إقرأ التاريخ إذ فيه العبر ظل قوم ليس يدرون الخبر

فإليك أخي العازف عن القراءة بعض الأقوال عن القراءة:

سُئل عبدالله بن محمد بن اسماعيل البخاري عن دواء للحفظ فقال: (إدمان النظر في الكتب).

قال عباس العقاد: (القراءة تطيل العمر).

قيل للمأمون ما ألذ الأشياء؟ قال: التنزه في عقول الناس (يعني القراءة في الكتب).

قال الحسن اللؤلؤي: (غبرت أربعين عامًا ما قلت ولا بت ولا اتكأت إلا والكتاب موضوع على صدري).

وقيل أيضًا: (الإنسان القارئ تصعب هزيمته).

وقال آخر: (إن قراءتي الحرة علمتني أكثر من تعليمي في المدرسة بألف مرة)

وقال الطبيب الشهير د. سوس: (كلما قرأت أكثر كلما عرفت أشياء أكثر، كلما تعلمت أكثر كلما حققت إنجازات أكثر).

وقال جيمس تريليس: (نحن نقوم بتعليم أطفالنا القراءة جيداً في المدارس، ولكننا ننسى تعليمهم حب القراءة).

وقال الكاتب الفرنسي مونتين: (أن تقرأ يعني أن تجد الصديق الذي لن يخونك أبداً).

قال الرئيس الأمريكي الثالث جيفرسون: (إن الذين يقرؤون فقط هم الأحرار، ذلك لأن القراءة تطرد الجهل والخرافة، وهما من ألذ أعداء الحرية).

قيل لأرسطو: كيف تحكم على إنسان؟ فأجاب: (أسأله كم كتابًا يقرأ وماذا يقرأ).

يقول جورج كردب: (إن من يقرأ كثيراً تساوره الرغبة في أن يكتب).

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

❊❊❊

مع القراءة

إذا اعتللتُ فكتبُ العلمِ تشفيني ... فيها نزاهة ألحاظي وتزييني
إذا اشتكيت إليها الهم من حزن ... مالت إليَّ تعزيني وتسليني[1]

طلب العلم وحصوله لا يحصل إلاّ بالقراءة الجادة، والحفظ وثبات المعلومة لا يحصل إلاّ بتكرار القراءة والمداومة عليها، وكثرة القراءة والتكرار لا يكون إلاّ بالعزم والمثابرة والعزلة عن الناس.

فقد كان العلماء يقرؤون كثيراً ويحفظون كثيراً لولعهم وشغفهم بالعلم وطلبه ومؤانسة الكتب من وحشة مجالس الناس، ويلازمون كتبهم ليلاً ونهاراً سفراً وحضراً في صحتهم واعتلالهم، حتى عشقوا الكتاب وصارت لهم نعم الجليس والقراءة مثل النفس والهواء.

اعتزلوا كل مشاغل الدنيا وملذاتها، وابتعدوا عن القيل والقال، ومجالس الغيبة واللغو وانشغلوا بمدارسة الكتب وتحصيل العلم والخير، فكانت لذتهم وراحتهم في ذلك، يخلو في بيته ويحادث سطور كتبه ويجري في حلبات فكره.

قيل لابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لماذا لا تجالسنا؟ فقال: أذهب فأجالس الصحابة والتابعين؛ وأشار بذلك إلى أنه ينظر في كتبه[2].

فكان ينظر في علمهم ويستفيد من آثارهم من كتبه، فعاش مرتاح البال ذا طمأنينة لا تشوبها هموم ولا غموم ولا أمراض ولا أسقام من تعب الدنيا وجمع

(١) تقييد العلم (ص ١٤٣).
(٢) عشاق الكتب (ص ١٦٠).

شتاتها، فراحة الكتب وأنسها وسعادتها لا تعدلها سعادة، بل نعجب من حال هؤلاء العلماء الذين كيف قرؤوا كتبًا ومطولات - لو رآها أحدنا لأصيب بصداع نصفي!! - في أوقات وجيزة قرؤوها وربما تكراراً أو نسخًا لها باليد لقلة نسخ تلك المخطوطات العلمية أو التاريخية.

يقول توماس: لقد نشدت الراحة في كل مكان ولم أجدها إلاّ في الجلوس بعيداً في ركن مع كتاب صغير(١).

فعادة القراءة هي المتعة الوحيدة التي لا زيف فيها؛ إنها تدوم عندما تتلاشى كل المتع الأخرى، واستبدال ساعات السأم بساعات المتعة والراحة مع الكتب وطيب ما فيها، فمن جرّب ضائقة الحياة وجد راحته ومتعته بين صفحات الكتب والمجلدات، لأن العلم وطلبه ولذته من أشرف المهن.

الكتب هي وسائل الوصول إلى هذه الغاية، وهي النوافذ التي تطل على حقائق الحياة، ولا تغني النوافذ عن النظر(٢).

يقول لورد شاننغ: الكتب هي المفاتيح إلى كنز الحكمة، الكتب هي بوابات إلى أراضي السرور، الكتب هي الممرات التي تؤدي إلى فوق، الكتب هي أصدقاء؛ فتعال ودعنا نقرأ(٣).

نفضت يدي من كل خلّ عرفته ... وإن شاقني خلٌّ فيا حبذا الكتب
سأحيا وحيداً كالطريد، وربّما ... يُسّر الفتى بالبعد إن ساءه القرب(٤)

---

(١) أقلام كتبت عن الصداقة والكتاب (ص ٥٢).
(٢) أنا للعقاد (ص١٤).
(٣) حصاد الفكر العالمي (ص ٦٣).
(٤) أغاريد السحر علي الجندي (ص ٢٠٧).

فمن عجائب أخبارهم في القراءة السريعة مع استيفاء المعلومة وثباتها ما نقله الذهبي: عن السِّلفي: كان المؤتمن الساجي (ت ٥٠٧) لا تُمَلُّ قراءته قرأ لنا على ابن الطيوري كتاب «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي» للرامهزي أول كتاب مفرد في علوم الحديث (٤٦٥ صفحة) في مجلسٍ واحد[١].

وهذا الحافظ أبو الحجاج المزّي (ت ٧٤٢) يقرأ «المعجم الكبير» للطبراني - وهو مطبوعٌ في أكثر من عشرين مجلداً - بحضور الحافظ البرزالي في ستين مجلسـًا.

قال السخاوي: في ترجمة عثمان بن محمد بن أبي عمرو الديمي الشافعي (ت ٩٠٨) لما عدد مقروءاته في رحلته المدنية: «وقرأ وهو هناك صحيح البخاري بتمامه في الروضة الشريفة في أربعة أيام»[٢].

وفي ترجمة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ المسماة بـ «الإنجاز» أن أحد الطلبة قرأ على الشيخ «سنن النسائي» في سبعة وعشرين مجلسـًا.

والقراءة المتكررة تثبت المعلومة وترسخها ليسهل الرجوع لها لاحقـًا، فبعض الناس يرى أن القراءة لنفس الكتاب مرات كثيرة مملة أو تفوت فوائد أخرى، ولكن يرجع هذا إلى انطباع القراء، ومطالعة الكتاب الواحد مرات مع تباعد فتراتها يفتح بابـًا من العلوم الجديدة.

قال العقاد: إن قراءة كتابٍ واحد ثلاث مرات أنفع من قراءة ثلاثة كتب في الموضوع نفسه.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩ / ٣١٠).

(٢) الضوء اللامع للسخاوي (٥ / ١٤١).

جاء في ترجمة الإمام غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي (ت٥١٨) قال قرأت بخط بعض أصحابنا: أنه سمع أبا بكر بن عطية يذكر أنه كرر «صحيح البخاري» سبع مئة مرة [١].

وذكر القاضي عياض في ترجمة الإمام أبو بكر الأبهري (ت٣٧٥) أنه قال عن نفسه: قرأت «مختصر ابن عبد الحكم» خمس مئة مرة، و«الأسدية» خمساً وسبعين مرة، و«الموطأ» خمس وأربعين مرة و«مختصر البرقي» سبعين مرة و«المبسوط» ثلاثين مرة[٢].

هؤلاء من كرسوا حياتهم للعلم وطلبه، وبذلوا في سبيله كل غالٍ ونفيس وتلذذوا بالقراءة ولم يتعبوا أنفسهم بهذه الدنيا، بل تجد أحدهم جليس كتابه ولم يتمردوا على صفحات كتبهم البيضاء، وبيض لهم طيب ذكرهم بعد رحيلهم، فكم من ميت في قبره وهو حيٌّ بين الناس بذكره وبعلمه وما تركه من العلم للناس، وكم من حيّ بين الناس ولا ذكر له بينهم لانشغاله بغير العلم والقراءة والثقافة.

لماذا لا نجعل هؤلاء قدوتنا؟

لماذا لا نستقطع من أوقاتنا الثمينة ـ ولو ربع ساعة يومياً ـ وقتاً يسيراً للقراءة؟!

لماذا لا نقرأ، ونرغبُ أنفسنا في القراءة ؟

لماذا نرى القراءة تخلف وضياعٌ للأوقات ؟

لماذا لا نحمل هم العلم ؟

---

(١) الغنية للقاضي عياض (ص٢٥٥).

(٢) ترتيب المدارك (ص ٢٢٤).

لماذا لم نفكر يومـًا في فائدة العلم ؟

لماذا لا يفكر أحدنا كيف ارتقى أهل العلم بين الناس ؟

لماذا لا نفكر كيف تبوء العلماء هذه المكانة في المجتمع ؟

لماذا لا يجعل أحدنا له جدولاً يوميـًا للقراءة ؟

فلو قرأ أحدنا عشر صفحاتٍ يوميـًا، انظر كم صفحة قرأ في أسبوع ثم في شهر، ثم انظر كم كتابـًا قرأ خلال العام الواحد، هذا ليس بالأمر السهل إلاّ لمن يسره الله له، وليس بالأمر الصعب على من يريد طلب العلم والقراءة المفيدة.

قال أبو الحسن علي بن الحسين: لولا تقييد العلماء على الدهر خواطرهم بالأخبار، وكتبهم بالآثار، لبطل أول العلم وضاع آخره[١].

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما.

❊❊❊

(١) مروج الذهب للمسعودي (ص ٢ / ٦٧).

متعة القراءة

نعم الأنيس إذا خلوتَ كتابُ ... تلهو به إن خانك الأصحابُ
لا ما مُفشيًا سرّاً إذا استودعته ... وتنال منه حكمة وصوابُ[1]

أول تكليف تلقاه رسول الهدى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ربه القراءة، وأول كلمة ألقيت عليه هي ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]، وأنزل الله كتابه لنقرأه وندبنا إلى تلاوته، وأقسم بالقلم تبيانًا لأهميته ومكانته، ورغّب رسوله في القراءة في المصحف، وهناك آيات كثيرة تمتدح العلم الذي يزداد من كثرة القراءة والمطالعة.

فالأصل في الإنسان الجهل؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: ٧٨].

فالقراءة لها أهمية في إزالة الجهل عن شخص القارئ، وأثرها كبير في زيادة المعلومات، وشحذ الذهن، وتنمية العقل والذوق، وتفتح للقارئ آفاقًا من الفكر والمعرفة[2].

لنرى همم العلماء العظيمة في القراءة والمطالعة خلفت تراثًا كبيراً من العلم وتصانيف زاخرة ومؤلفات متنوعة في علوم شتى.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإني أخبر عن حالي، ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره فكأني وقعت على كنز، ولو قلت إني طالعت عشرين ألف

(١) تقييد العلم ، الخطيب البغدادي .
(٢) القراءة والحث عليها ، محمد العيدروس .

مجلد كان أكثر وأنا بعدُ في الطلب)[١].

وكان بعض العلماء يحسبون عند تفصيل ثيابهم حساب الكتب، فكان لأبي داوود رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثوب له كمٌ واسع وكم ضيق، فقيل له في ذلك فقال: (الواسع للكتب والآخر لا يحتاج له)[٢].

يقول ربيعة الرأي: العلم وسيلة إلى كل فضيلة.

يقول أديسون: المطالعة بالنسبة للعقل مثل الرياضة بالنسبة للجسم، فكما تنشط الرياضة وتحفظ كذلك المطالعة تبقي حياة الفضيلة التي هي صحة العقل[٣].

فالقراءة والمطالعة هي المتعة الوحيدة التي لا زيف فيها، إنها تدوم عندما تتلاشى كل المتع الأخرى، وإذا لم ننشغل بالقراءة شغلتنا أنفسنا بغيرها من الأشياء التافهة، ولا بد من التفرغ للقراءة والمطالعة؛ لكن فيما يفيدنا ويعود علينا بالنفع الكثير.

وأن نجعل القراءة وسيلة لتحقيق الهدف وهو مرضاة الله تعالى، وتعلم العلم الشرعي أولاً وتنمية المهارات اللغوية لدينا، واكتساب العلوم الأخرى، ثم الترويح بها عن النفس والتسلية التي أباحها الله.

قال الحافظ في ترجمة الخطيب البغدادي: (كان الخطيب يمشي وفي يده جزء يطالعه)[٤].

---

(١) صيد الخاطر، لابن الجوزي.
(٢) تذكرة الحفاظ للإمام الحافظ الذهبي.
(٣) متعة الحديث (ج٢)، عبدالله الداوود.
(٤) تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي.

ورد عن شيخ فقهاء الأندلس أبي عمر الأشبيلي أنه كان قد حبب إليه القراءة مدة عمره لا يفتر عنها ليلاً ولا نهاراً وجعله فيه لذته، ذكر أن صديقـًا له قصده في عيد زائراً له، فأصابه داخل داره، ودربه مفتوح، فجلس ينتظره وأبطأ عليه، فأوصى إليه فخرج وهو ينظر في كتاب، فلم يشعر بصديقه حتى عثر عليه فيه، لاشتغال باله بالكتاب، فتنبه حينئذ له وسلم عليه واعتذر له من احتباسه بشغله بمسألة عويصة، ولم يمكنه تركها حتى فتحها الله عليه.

فقال له الرجل: في أيام عيد ووقت راحة مسنونة ؟! فقال: إذا عَلَت هذه النفس أنْضَبَت إلى هذه المعرفة، والله مالي راحة ولا لذة في غير النظر والقراءة[1].

فنجد الآن من لا يقرأ مطلقـًا والسبب في ذلك سرعة الملل أثناء القراءة، وعدم معرفة قيمة القراءة وفضلها أخرج لنا أجيالاً لا تقرأ، واستبدال الغث بالسمين أخرج لنا ثقافة ضحلة بين الشباب، والأقران الذين ينفرون من القراءة والكتاب أخرج لنا أجيالاً لا تجيد القراءة والكتابة، والتهاون باللغة العربية وأساسياتها التي هي لغة القرآن الكريم وأفضل اللغات وأجملها أخرج لنا من لا يجيد التعبير ولا يقيم علامات الترقيم ويكسّر اللغة، وإن مما يوصف به القراء مما يبيِّن عظمتهم وما يمتلكونه من قوة معرفيَّة أنهم دائمـًا في سباقٍ مع زمنهم وعصْرهم، ولعلنا نسمع مَن يصف فلانـًا بأنه ذو عقلٍ كبير، أو عقلُه أكبر مِن سنِّه، والسبب في ذلك قطْعـًا هو القراءة.

وكما قيل: الكتب موجودة، والمكتبات موجودة، ومراكز الأبحاث العلمية

---

(١) ترتيب المدارك ، للقاضي عياض .

موجودة، وخدمات الانترنت موجودة؛ ولكن في مكان مرتفع لا يصل إليه قصار الهمة والعقول.

* لا تقل لي كم كتاباً قرأت ولكن قل لي كم سطراً فهمت.
* لو صور العقل لأضاء معه الليل ولو صور الجهل لأظلم مع النهار.
* ليس المهم أن تقرأ بسرعة ولكن الأهم من ذاك هو معرفة ما لا يجب أن تقرأه.
* إذا ضيعت الوقت وأنت شاب ضيعك الوقت وأنت كهل.
* سرّ النجاح هو أن نعرف كيف نقرأ وكيف نستثمر الوقت.

قال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

ما تطعمت لذة العيش حتى ... صرت للبيت والكتاب جليسا
ليس شيء أعز عندي من العلم ... فما أبتغي سواه أنيسا
إنما الذل في مخالطة الناس ... فدعهم وعش عزيزاً رئيسا

***

(١) صفحات من صبر العلماء ، عبدالفتاح أبو غدة .

(١) عشاق الكتاب

أعَـزُّ مـكانٍ في الدُنـا سَـرجُ سَـابحٍ وخَيرُ جَليسٍ في الـزمَانِ كِتابُ[١]

الكتاب أعظم عامل في حفظ الأفكار ونقلها من السلف إلى الخلف، ومن أمة إلى أخرى عبر العصور والأجيال، فإذا ضعفت الأمة وخَفَتَ نجمها بقيت الكتب والأسفار أعظم مورد وأوله، وأصدق شاهد على سابق الأمة وماضيها، فلولا تقييد العلماء السابقين على مرّ الدهور خواطرهم بالأخبار وكتبهم بالآثار لذهب أول العلم وضاع آخره.

فالكتاب نعم الجليس ونعم الصاحب، فقد ملئ علماً[٢]، فما من شخص على هذه الأرض إلاّ وللكتاب عليه فضل ومنّة، فأصبح الكتاب صاحباً وصديقاً وجليساً ونديماً ومعشوقاً لبعض العلماء والقرّاء والكتاب والمثقفين، وبعضهم وصل لدرجة أنه يعشق الكتاب فلا يرضى بغيره عشيقاً.

وقديماً قيل: وللناس فيما يعشقون مذاهبُ[٣]، فمنهم من يعشق المال، وآخرون يلهثون وراء الجاه والمناصب، وآخرون مغرمون بالنساء والجمال، وآخرون. . وآخرون. . فأما عشاق الكتاب فلهم شأن آخر، وحديثهم ذو شجون، حديث باق على وجه الدهر، لا يفنى حتى تفنى الأرض وما عليها من كتب هؤلاء العشّاق وآثارهم، تجدهم لا يفترون من المطالعة والقراءة والكتابة، لا يفتح كتاباً إلاّ وبيده قلماً يدون ما يعجبه.

---

(١) ديوان أبو الطيب المتنبي .

(٢) مما قاله الجاحظ عن الكتاب في كتابه (رسائل الجاحظ) .

(٣) هذا عجز بيت ، وصدرهُ : ومن عادتي حبُّ الديار لأهلها .

يأنسون بزيارة المكتبات العامة والخاصة، يرتادون مكتبات بيع الكتب لشرائها واقتنائها، أول من تجد في معارض الكتاب الموسمية، وما إن يجد أحدهم كتاباً جديداً أو سمع به إلاّ وبادر في شرائه وقراءته وإضافته إلى مكتبته الخاصة، يحافظون على قيمة الكتاب فلا يكاد أحدهم يعيره من الخوف عليه ومن حبه للمطالعة فيه.

فهؤلاء العشاق ما كان يؤنسهم في وحشتهم إلا الكتبُ والدفاتر، ولا يصحبهم إلا الأقلامُ والمحابر، فخلفوا لنا علماً كثيراً، ونقحوا معلومات جمة، وورّثوا علماً غزيراً لمن خلفهم ينهلون من معينه.

وأغرق العقل في لجّ من الكتب ... في الدين والعلم والتاريخ والأدب
ملازماً كتب الماضين يسألها ... ما أنتجت من فنون أمة العرب

عشاق العلم فأعظم شغفاً به وعشقاً له من كل عاشق بمعشوقه، وكثيرٌ منهم لا يشغله عنه أجمل صورة من البشر[١].

ويعد الجاحظ من أكبر عشاق الكتب المولعين بها، وقد جمع مكتبة عامرة بالكتب النادرة النفسية، وقال بعض المؤرخين: إن كتبه كانت السبب في موته، فقد كان من عادته أن يصف كتبه فوق بعضها محيطة به فسقطت عليه فأصابته بشلل، ثم مات بعد ذلك.

وأخبار عشاق الكتاب ممن ذهب لا تحصيها المؤلفات ولا المجلدات فقد كانوا ينفقون من أجلها كل غالٍ ونفيس، منهم من ترك الزواج من أجلّ التفرغ للكتب، وكان أحدهم يترك مجالسة الناس من أجل هذه الكتب التي كرّس وقته

(١) روضة المحبين ، لابن القيم رحمه الله .

وجهده لقراءتها، ويسافر آخر من أجل الحصول على كتاب، ويستدين أحدهم المال لشراء كتاب، وربما باع من أثاث بيته للحصول عليها.

۞ فهل يلام مثل هؤلاء؟

لا والله لن يلومهم أحد. . لأن الكتاب بمثابة السراج الذي ينير ظلماء العقول، وجسراً يعبر به الجاهل من عالمه إلى عالم المعرفة والعلم.

قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

لترى أناسًا عرفوا قيمة الكتاب فجعلوه أنيسهم في الوحدة وفي الطرقات وفي المنتزهات وفي أوقات الفراغ، وفي كل مكان وحين ، فاستحقوا ما وصلوا إليه من مكانه اجتماعية وأدبية وثقافية فتركوا بصمتهم خالدة في التاريخ رغم مرور العصور، وأناس جعلوا الكتاب عدوهم اللدود، فبنوا حاجزاً بينهم وبينه، فلا يجدوا في أنفسهم رغبة إليه، ليجدوا بينهم وبين الكتاب عداوة قديمة بسبب موقف دراسي، أو عدم الرغبة الكافية في القراءة، فكانت النتيجة ـ والله المستعان ـ ما نراه الآن في عصرنا الحالي من انتشار الجهل بين الشباب وعزوفهم عن القراءة مع كثرة الفراغ.

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أيُ مفسدة[1]

كان الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المولعين بالكتب والقراءة وكان مجتهداً في طلب العلم، وكانت له مكتبة تحوي من الكتب الشيء الكثير، وكان يردد هذه الأبيات دائماً[2]:

---

(١) أبو العتاهية ، شاعر الزهد والحكمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) أورد الشيخ اسماعيل بن عتيق في كتابه: (المثال من الرجال، عبدالله القرعاوي) في صفحة ٧٢ =

ببيت الشيخ كتب قد شراها	وجمعها ولكن ما قراها
وطابت نفسه منها بسلوى	إذا فتح المكان بأن يراها
وينظر في قطائعها ويمضي	وهل تدري القطائع ما وراها
فوا أسفًا على الأيام تمضي	سدى وقضى على نفسي كراها
وعن أدنى المعالي قد توانت	فهل ترجى أن تتوق إلى ذراها
نعم نرجو الإله يمن لطفًا	فيمنحها الشفا مما اعتراها

فمن يقرأ كتاب: (المشوق إلى القراءة وطلب العلم) لمؤلفه الدكتور علي بن محمد العمران، يجد في نفسه شوقًا إلى القراءة، والإقبال على الكتب.

فهو من اسمه، اسم وافق مسماه، فقد كشف فيه صوراً مشرقة لحياة علماء ضربوا أروع الأمثلة في حب العلم وطلبه من عشاق الكتاب ..

أنصح بقراءته واقتنائه فلن يكلف الكثير، فإذا كان الكتاب جدير بالقراءة فإنه جدير بأن يشترى.

قال الشاعر :[1]

مات الأئمةُ أهل العلمِ ـ لا بَليتْ	أوصَالُهُمْ ـ ولهم في الكون آثار
هم خلفوا العلم تَذكاراً لأنفسهم	وما يؤثر في السالين تذكار
قد أفعموا الكتب أخباراً وما لبثوا	أن أصبحوا وهم في الكتب أخبار

=تحت عنوان – من هو صاحب القلم؟ – أن هذه الأبيات كانت مكتوبة على باب خزانة كتب الشيخ حافظ رحمه الله، الذي كان من عشّاق الكتاب ومحبيه، كان شغوفًا بطلب العلم، توفي شابًا في الخامسة والثلاثين من عمره رحمة الله عليه وعلى جميع موتى المسلمين.

(١) ديوان محمد العيد آل خليفة، (المتوفى: ١٣٩٩هـ).

(٢) عشاق الكتاب

نعـمَ الأنيـسُ إذا خلـوتَ كتـابٌ تلهو بـه إن خـانـك الأصـحـابُ
لا مفشـيًا سـرّاً إذا اسـتودعته وتنـال منه حكمة وصـوابُ[١]

انظر إلى هؤلاء العلماء والقرّاء الجهابذة وحرصهم على الوقت حتى شغلوا جميع أوقاتهم بالكتاب حرصًا منهم وعشقًا له، وتأمل لمن أفنى عمره كله في القراءة والمطالعة في الكتب وخذ لك من هؤلاء قدوة لك، فلا تجد منهم أحداً أفنى ساعة من عمره في غير ما يفيد وينفع.

فلم تشغلهم الدنيا ولم يلقوا لها بالاً، رغم أن بعضهم في مناصبهم من التدريس والتعليم والفتيا والقضاء والحروب والغزوات، لكنهم محافظون على الوقت، فلو رأوا حالنا اليوم، قراءة أحدنا في اليوم كله لا تصل إلى ساعة من أوقاتهم، سبحان الله. . ما هو السبب؟ إنها الهمم.

صار أصعب شيء لدينا هو القراءة والاطلاع والثقافة، يعتبرها البعض مملة، ويرى بعضهم أنها تخلف وأنها مضيعة للوقت، فلننظر إذا كانت القراءة مضيعة للوقت، فما هو العمل العظيم الذي نستغل فيه أوقاتنا؟!

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإني أخبر عن حالي، ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره فكأني وقعت على كنز، ولو قلت إني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر وأنا بعدُ في الطلب)[٢].

---

(١) تقييد العلم ، الخطيب البغدادي .
(٢) صيد الخاطر، لابن الجوزي .

ومن حرص ابن عقيل الحنبلي أنه لم يضيع ساعة من عمره، وأنه كان يختار في أكله سفّ الكعك وتحسيه بالماء على الخبز، لتوفير الوقت للمطالعة وتدوين فائدة أو حلّ معضلة.

قال السخاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمة محمد الصغّاني المتوفى عام (٨٥٤): (أعرفه أزيَد من خمسين سنة، وما دخلت إليه قط إلاّ ووجدته يطالع أو يكتب).

جاء في ترجمة الحافظ عبدالغني المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكان قد ضعف بصره من كثرة المطالعة).

قال الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن نفسه: أنه تعلم القراءة وهو صغير، ومرّ عليه سبعون سنة وهو يقرأ، ما كان يلعب وهو صغير في الزقاق مع الأولاد ولا يقعد في قهوة، وليس لديه ما يشغل به وقته إلاّ الكتاب والمطالعة والقراءة فكان يعيش بين الكتب منذ الصغر، فيقرأ في اليوم عشر ساعات ما لم يكن على سفر[١].

إنها الهمة العالية التي أوصلته لهذا الفعل، ولم يضيع لحظة من وقته في اللعب، ولم يكن له أصدقاء يقابلهم خارج المدرسة، فكانت النتيجة أنه أخرج لنا من مخزونه الثقافي والعلمي والأدبي كتبًا عظيمة، وعلى رأسها ذكريات الطنطاوي في ثمانية أجزاء ضخمة، ملئت رفوف المكتبات وتحمل بين طياتها وغيرها من الكتب الكثير.

ويقول أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد أكون مستغرقًا، أو منصرفًا إلى كتابة قد جمعتُ لها ذهني.. فيجيئني ضيف، فأنزل إليه لأسمع منه لغو الحديث، فيتفرق ما اجتمع من ذهني، وتفسد عليّ مطالعتي، وإن أنا بعثت من يقول له: (ليس هنا) أكون

(١) مقطع على اليوتيوب ، عن حياة الشيخ رحمه الله .

قد كذبت، وإن اعتذرت إليه بمطالعتي أو بكتابتي أكون قد قصرت في حقوق الضيافة[١].

وتحدث رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (الذكريات) قائلاً: فأنا اليوم وأنا بالأمس كما كنت في الصغر، أمضي يومي أكثره في الدار أقرأ، وربما مرّ عليّ يوم أقرأ فيه ثلاثمائة صفحة، ومعدل قراءتي مائة صفحة، من سنة ١٣٤٠هـ إلى هذه السنة ١٤٠٢هـ، اثنتان وستون سنة، احسبوا كم يومـًا فيها، واضربوها بمائة تعرفون كم صفحة قرأت، أقرأ في كل موضوع حتى في الموضوعات العلمية[٢].

فمن ولع هؤلاء العشاق للكتاب وللقراء والمطالعة لم يكتفي أحدهم بقراءة الكتاب مرة واحدة فقط، بل يقوم بقراءته عدة مرات ويدوّن منه، ويحل مشكلاته وما خفي من درره وفوائده وفرائده، ولم يكتفوا بعلم واحد دون غيره، بل تجدهم يقرأون في كل العلوم والفنون، فأصبحوا بحاراً زاخرة بأمواج ثقيلة من العلم والمعرفة، لا تستطيع أن تقف عليها سفن الجهالة والضلالة، ولا تستطيع أن ترسي أمامها مطلقـًا.

وكان بعضهم ينام والدفاتر والكتب والمصنفات حول فراشه ينظر فيها ويقرأ متى انتبه من نومه وقبل أن ينام، ويدون ما اجتمع له من الفوائد.

فهذا أبو العلاء الهمذاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ باع جميع ما ورثه، وكان من أبناء التجار، وأخرجه في طلب العلم، حتى سافر إلى بغداد وأصبهان مرات كثيرة ماشيـًا، وكان يحمل كتبه على ظهره، قال: كنت أبيت ببغداد في المساجد وآكل خبز الدخن[٣].

---

(١) في سبيل الإصلاح ، علي الطنطاوي .

(٢) ذكريات الطنطاوي ، تحت عنوان :(شغلي الدائم المطالعة ص٢١١) .

(٣) سير أعلام النبلاء، للذهبي .

وهذا الشيخ عبدالفتاح أبو غدّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول عن نفسه[١]: كنت في أيام الطلب والتحصيل مملقاً كأكثر طلبة العلم، وكنت أشتري من الكتب ما أستطيع شراءه بالاقتطاع من نفقتي الضيقة، بالنقد الحاضر أو الدين الآجل إذا مكن.

وعرضت لي يوماً بعض كتب نادرة تهمني جداً، ورغبت في اقتنائها، ولكني كنت في إملاق شديد، فلا سبيل إلى شرائها! وقلق قلبي وخاطري من جرّاء ذلك، فبعتُ (شالتي) التي ورثتها من أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في سوق الحراج، واشتريت تلك الكتب، وأرحت قلبي وخاطري، وفرحت باقتنائها ووصولي إليها فرحاً عظيماً أنساني فقد (الشالة) والحمد لله.

خليلي كتابي لا يعافُ وصاليا ... وإن قل لي مال وولّى جماليا
كتابي عَشيقي حين لم يبق مَعْشَق ... أُغازله لو كان يدري غزاليا
كتابي أب برّ وأم شفيقة ... هما هو إذ لا أم أو لا أبا ليا
كتابي جليسي لا أخاف مَلالَه ... مُحدّث صدقٍ لا يخاف ملاليا
كتابي بحرٌ لا يغيض عطاؤه ... يفيض عليّ المال إن غاض ماليا
كتابي دليل لي على خير غايةٍ ... فمن ثم إدلالي ومنه دلاليا

قيل أن هذه الأبيات السابقة كانت مكتوبة على باب خزانة كتب الإمام أبو بكر القفّال رحمة الله عليه[٢].

❊❊❊

(١) صفحات من صبر العلماء ، عبدالفتاح أبو غدّة .
(٢) تقييد العلم ، للخطيب البغدادي .

(٣) عشاق الكتاب

بيّن العلماء قيمة كتب العلم وعظيم أثرها وجلالة قدرها وشرف مكانتها في عبارات انتشرت لهم في مصنفاتهم شعراً ونثراً، مما يدل على شغفهم بها قراءة وتحصيلاً، واستكثاراً منها في جميع العلوم والفنون، لأنهم يوقنون أنه لا يخلو كتاب من فائدة.

«من لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذّ عنده من إنفاق عشاق القيان، والمستهترين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضياً»[١].

جاء عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تكاد نفسه تشبع من العلم، ولا تروى من المطالعة، ولا تملُّ من الاشتغال، ولا تكلُّ من البحث، وقلّ أن يدخل في علم من العلوم في باب من أبوابه إلاّ ويفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك أشياء في ذلك العلم على حذّاق أهله»[٢].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأعرف من أصابه مرض من صداع أو حمى وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وجد إذاقة قرأ فيه، فإذا غلب وضعه، فدخل عليه الطبيب يوماً وهو كذلك فقال: هذا لا يحل لك فإنك تعين على نفسك وتكون سبباً في فوت مطلوبك».

وأما ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فأمره عجيب، فقد قرأ (٢٠ ألف) مجلداً وهو بعد في الطلب، لم يشبع من القراءة والمطالعة، يقول عن نفسه: «وإني أخبر عن حالي:

---

(١) الحيوان ، للجاحظ (ت٢٥٥) .

(٢) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ، لابن عبدالهادي .

ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتاباً لم أره فكأني وقعت على كنز»[١].

وذكر الإمام المقريزي عن العلامة الحموي أنه قال: «إذا لم أشتغل بالعلم ما ذا أصنع؟».

فقد كان العلماء الكبار والجهابذة لا ينفكون عن القراءة والمطالعة، فتلازمهم الكتب حضراً وسفراً، ويحملونها معهم على ظهورهم في رحلاتهم، فإذا وجد أحدهم فرصة فتح كتاباً وقرأ فيه.

وبعضهم يسهر الليل طلباً لفائدة من بين دفتي الكتاب، أو ممسكاً قلمه لإصلاح خلله، وشرح غامضه، وتبيين مُشكله.

فمهما انتشرت هذه التقنية والثورة المعلوماتية بيننا، فلن يستغنى عن الكتاب مطلقاً، وهذه الأجهزة الحديثة لن تحل محل الكتاب ـ كما يزعم البعض ـ لوجود ضالته فيه، والبعض لجأ إلى الاستغناء عن الكتب الورقية بالكتاب الالكتروني.

فكثيرٌ من الناس يعتقد أن ظهور الشبكة العنكبوتية للإنترنت واستخداماته الواسعة وسرعته في إيصال المعلومات قد يغني عن الكتاب ويجعل الناس تعزف عن القراءة والمطالعة في الكتاب ، وكثيرٌ من الناس يعتقد أنه ما دام يملك جهاز كمبيوتر ومشتركاً بشبكة الاتصالات العالمية ، لم يعد بحاجة إلى الكتاب والقراءة ، أو حتى شراء مجلة أو الاشتراك بدورية ، أو الذهاب إلى معرض كتاب أو مكتبة العامة أو خاصة.

فبلا شك هذا معتقد خاطئ ، وينم عن تفكير محدود، فمهما تطور العلم

---

(١) صيد الخاطر ، لابن الجوزي .

والتعليم على وجه الأرض فلن يستغنى عن الكتاب، كما أن المعلومات التي يزودها الإنترنت للمستخدم لا تنمي عقله بالشكل الصحيح ولا تستثير ذاكرته ومخيلته كما تفعل القراءة من الكتاب أو المادة المطبوعة.

ولكن تظل الحاجة إليهما معـًا (المعرفة عبر الكتاب والمعرفة عبر الانترنت) إذ لا يمكن أن يدعي إنسان بأنه قادرٌ على الاستغناء عن أحدهما دون الآخر فلكل وعاء فائدته، ولكل ورد رائحته مع تأكيدنا على الفرق الواضح والجلي بين من يأخذ زاده الثقافي والمعرفي عبر الكتاب عمن يقتصر على الإنترنت لوحده، نعم الإنترنت هو الوسيلة الأسرع والأسهل للحصول على أي معلومة يحتاجها الباحث والمتابع، ومع ذلك يظل رونق وطعم تذوق القراءة عن طريق الكتاب هي الأساس ولها متعتها الأساسية.

وقد شاهدت تصويت عبر أحد المواقع على ما يلي:

۞ **هل تعتقد أن القراءة عبر الانترنت تغني عن قراءة الكتب؟**

فكانت النتيجة ٦٤٪ لا، ١٠٪ نعم، ٢٦٪ أحيانـًا. . (بشارة خير)

الكتاب ينمي عقلك ويصقل مواهبك ويفتح عليك أبوابـًا كثيرة من العلم والمعرفة كنت تجهلها.

***

غلاء الكتب

عليكَ بالحفـظِ دونَ الجمعِ في كتبٍ فـإن لـلـكـتـبِ آفـــاتٌ تُـفـرقُـهـا
المـاءُ يُغرقهـا والنـــــارُ تُحرقُهـا والفأرُ يَخرقـــها واللصُ يَسرقها

إنّ مشكلة غلاء الكتب؛ مشكلة قديمة قدم الزمن نفسه، حيث يتلاعب بها بعض التجار بأسعارها قديمـًا وحديثـًا، فهذه هي المشكلة الأولى والأخيرة في عزوف الشباب عن القراءة، وجعلت بين الكتاب وبين الشباب إعراض وفجوة لا مثيل لها.

أصبحت دور النشر والطباعة تغالي في أسعار الكتب مهما كانت صغيرة أو كبيرة ذات فائدة أو غير مشتملة عليها، فحرموا الناس والقراء وطلاب العلم من الاستفادة منها، وعدم قدرة البعض على شرائها لقلة دخله اليومي أو الشهري، وربما احتاج لهذه الكتب الضرورية كمراجع لرسالة أو مناهج جامعية، فيعاني من غلاء ثمنها الغير معقول، ولعل البعض قد لاحظ ذلك في أغلب المكتبات، فإذا كان الكتاب مهمـًا وعليه إقبال كثير ولو كان ذا طبعةٍ رديئة رفعوا سعره.

وقد رأيت بنفسي في مكتبة ما وغيرها ـ مكتبات كثيرة ـ كتب علمية مُفيدة لا تتجاوز الثلاثون ريالاً لأنه ليس عليها طلب، بينما بعض الكتب والروايات التي ملأت الرفوف بألوانها وأشكالها، ولا تسمن ولا تغني من جوع ولا تزيد ثقافتك شيئـًا ووجودها كعدمها أسعارها تتجاوز الخمسون ريالاً، فالعبرة بالفائدة أم بفخامة الورق المطبوع.

فغلاء ثمن الكتب وعدم قدرة معظم قارئ العربية على شرائها من الصوارف الكثيرة التي تبعد الناس عن القراءة والثقافة.

وهناك دراسة ميدانية أجريت في بعض الدول العربية، أظهرت التدني النسبي في شراء الكتب، وهذا له مردوده السلبي على الناشرين، إذ أن دورة إنتاج الكتاب لا تكتمل إلاّ بمشاركة قارئ الكتاب وشرائه إياه بشكل مكثف ومتواصل.

هذا غير وجود الكتاب الإلكتروني المجاني المتداول بين الناس والحصول عليه بكل سهولة.

فأصبح القارئ لا يجد ميلاً البتة ولا أهمية للقراءة من غلاء الأسعار، مهما كانت الطباعة راقية أو فخامة الورق لن تجذب القراء مطلقاً بهذه الأسعار.

كان بعض الورّاقين يقومون بتجارة الكتب من بيع وشراء وسمسرة، فكان بعضهم دلالين لبيع الكتب، وكانت تقام في أسواق الكتب عمليات البيع والشراء والسمسرة والدلالون ينادون لبيع الكتب... ومن أخبار هؤلاء الدلالين نستطيع أن نقف على أسعار الكتب آنذاك، فمنها ما بيع بسعرٍ بخس ومنها ما بيع بسعرٍ باهظ، فمن ذلك ما ذكر أن تركة الطبيب الأسلمي أسعد المطران بيعت بالدلالة، وفيها ألوف كثيرة من الأجزاء بيعت بالمناداة بثلاثة ألاف درهم.

وحكى يحيى بن عدي: أن كتابين من شرح الاسكندر للسماع ولكتاب البرهان «عرضا عليه بمائة وعشرون ديناراً؛ قال: فلما مضيت لأحتال في الدنانير ثم عدت فأصبح القوم قد باعوا الشرحين في جملة كتب في جملة كتب على رجلٍ خرساني بثلاثة آلاف درهم».

ولما مات أحمد بن ثعلب خلّف كتباً جليلة فلما عُرضت للبيع قال الزجّاج

للقاسم بن عبدالله الوزير: هذه كتب جليلة فلا تفوتنك، فأخضر خيران الورّاق وكان دلال كتب، فقوّم ما يساوي عشرة دنانير بثلاثة، فبلغت أقل من ثلاث مائة دينار، فأخذها القاسم بها.

ولا تخلو هذه العمليات من غش أو خداع، ومن ذلك ما يحكى أن ابن الخشاب (المتوفى سنة ٥٦٧ هـ) كان إذا حضر سوق الكتب وأراد شراء كتاب، غافل الناس وقطع منه ورقة، وقال: إنه مقطوع ليأخذه بثمن بخس.

وهذا الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه المشهور «صفحاتٌ من صبر العلماء»؛ يقول عن نفسه: (كنت في أيام الطلب والتحصيل مملقاً كأكثر طلبة العلم، وكنت أشتري من الكتب ما أستطيع شراءه بالاقتطاع من نفقتي الضيقة، بالنقد الحاضر أو الدين الآجل إذا مكن).

وعرضت لي يوماً بعض كتب نادرة تهمني جداً، ورغبت في اقتنائها، ولكني كنت في إملاق شديد، فلا سبيل إلى شرائها! وقلق قلبي وخاطري من جرّاء ذلك، فبعتُ (شالتي) التي ورثتها من أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في سوق الحراج، واشتريت تلك الكتب، وأرحت قلبي وخاطري، وفرحت باقتنائها ووصولي إليها فرحاً عظيماً أنساني فقد (الشالة) والحمد لله.

۞ خاتمة:

قال المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قرأت كتاب الرسالة على الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثمانين مرّة؛ فما من مرّة إلاّ وكان يقف على خطأ. قال الشافعي: هيه ـ أي حسبك واكفف ـ أبى الله أن يكون كتاباً صحيحاً غير كتابه.

أقلام عوجاء

في كفه أخرس ذو منطق ... بقافه واللام والميم
شبر إذا قيس ولكنه ... في فعله مثل الأقاليم
محرف الرأس ومسوده ... كإبرة الروس من الريم[1]

أقسم الله تعالى في كتابه العزيز بالقلم، ووضعه في المكان الرفيع، ونوّه به في المنصب الشريف، فقال: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾ وجاء القرآن الكريم بسورة كاملة تحمل اسمه، لعظم شأنه وقوة حجته.

فبالقلم يدون كل شيء ويحفظ من الضياع، فقد نقل لنا ماضٍ عريق، وخلّد ذكرى خالدة لشخصيات ذهبت، ورمى في هامش التاريخ سوءات أقوام فلا يذكرون إلاّ بها، أثبت به العلماء مؤلفاتهم وناظروا به خصومهم، إذا كتب أبدع وإذا حكم أوجع وإذا ضلّ ضَيّع.

يقول أديب الفقهاء وفقيه الأدباء الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن عمادي هذا القلم، وإنّه لغصن من أغصان الجنّة لمن كان يستحقها ، وإنّه لحطبة مُشتعلة من حطب جهنّم لمن كان من أهل جهنّم).

تأمل كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي يحكي هذا الواقع الذي نعيشه، أقلام التي سخرت في الخير وأقلام سخرت للشرّ، أقلام تكتب وتبدع، وأقلام تكذب وتخدع، أقلام مُشَرّفَه وأقلام مُدَنّسَة، أقلام عوجاء وأقلام مستقيمة.

---

(١) الفضفاضي.

فنتساءل لماذا هذه الأقلام مكسّرة، وما هو السبب في ذلك؟ إنها أهملت ولم تعطى حقها ولأنها لم نستخدم استخداماً صحيحاً فتكسرت مع مرور الزمن، وأصبحت بلا قيمة تذكر، ولماذا هذه الأقلام العوجاء انتشرت؟

أهملنا التدوين وتقييد كل ما هو مفيد في المدونات الخاصة، وتركنا كتابة ما نقرأ وما يختلج في صدورنا وعقولنا من الأفكار، فكم من أفكار ضاعت، وكم من حكم وفوائد وفرائد ماتت في مهدها لأنها لم تحيا وتعالج بهذه الإبرة الصغيرة - القلم -.

تساؤل. . لماذا؟. . من السبب في عوجها؟. . من كسرها؟. . كيف؟

فقلمك هو جنتك أو نارك، هو جنتك إن كان دليلاً على الخير، فأنعم والله بقلم سطر كلمات النور، ووصايا الهدى، وكان كالقمر المنير الذي يهدي التائهين في الظلمات، وهو نارك إن كان دليلاً على الضلال، فاتحاً لأبواب الشرور والشبهات، ساخراً من أئمة الهدى وبدور الدجى[1].

تأمل هذين البيتين:

ومَا مِن كَاتبٍ إلا سَيفنَى ... ويُبقى الدَهرُ ما كَتبتْ يداهُ

فلا تكتُبْ بكَفِكَ غَيرَ شيءٍ ... يَسُركَ في القيَامَةِ أن تَراهُ[2]

صدق الشاعر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في كلامه، فاحذر أن تكتب ما يبقى شاهداً عليك، فإذا فني المرء بقي قلمه يذكره بخير أو بسوء، ويبقى رهين عمله وقلمه، فإن لم تجعل لك قلم يفيض عليك بالحسنات بعد وفاتك، فاحذر أن تكون ممن

(١) ومضة حول القلم، محمد مشعل العتيبي.

(٢) الشاعر أمين بن خالد الجندي المتوفى عام ١٢٤٦هـ.

يشقى بسبب قلمه وسيئاته تجري عليه في قبره.

اجعل قلمك يدل عليك، ويشير إليك بحروفه التي تسطرها به، اجعله شاهداً لك يوم القيامة، اجعل قلمك نقياً خالصاً لوجه الله، ابعده عما يشوبه ويعود عليك بالسوء والوبال، اخدم به دينك ومجتمعك، احذر من جعله لساناً سليطاً على ثوابت الدين وشعائره، وعلى أئمة الهدى ورموز الخير من الصالحين، احذر أن تنشر به الكذب أو تقدح به في رجال الدين والدولة، فلا تفسد به دنياك وأخراك.

القلم الذي يعكس اتجاه الفطرة والآداب والقيم فهو قلم أعوج، والقلم الذي يخالف سنة الحياة ليصبح متكسراً في مشيته وكتاباته وحروفه لهو أحق بالكسر على رأس صاحبه ليفيق من غفلته ورقدته التي جعلت على بصره غشاوة فلا يبصر الصواب، فهذه الأقلام أفسدت فقد حان كسرها، والقلم الذي يعكس السير فهو قلم يبحث عن الشهرة اعترافاً منه بالمثل السائد (خالف تعرف).

أصبح القلم أمضى سلاح وأنفذها وأبقاها على الزمان وأثبتها للغير، فلا تسطر به إلاّ خيراً، فالساحة الورقية والمعلوماتية والعنكبوتية تعج بكثير من الأقلام فيها من الخير الكثير وفيها من الغث والسمين، في كل فن من الفنون، وفي علوم مختلفة، فاختر لنفسك من هذه الأقلام، متابعة واقتداءً وإعجاباً، والمرء لا يبحث إلاّ عما يفيد وينفع.

وتأمل هذه المؤلفات التي تمتلئ بها رفوف المكتبات العامة والخاصة لهي والله أقلام جديرة بالذكر، وقف خلفها جهابذة مخلصون، ينتقون من الفنون أطايبه، ومن العلم أحلاه، ومن الدرر أغلاه.

أفلا نجعلهم قدوة لنا في الكتابة؟ أم نسير على خطا من مالت أقلامهم وتنكبت الطريق الصحيح لأجل الشهرة.

فإذا أردت أن يبقى ذكرك بعد موتك فاكتب شيئًا يستحق أن يقرأ، أو افعل شيئًا يستحق أن يكتب ويدون، فمن الكتّاب من يرتقي بكتاباته، ومنهم من يدنس قلمه بعباراته، بينما نجد آخر يظلم الكلمات بقلمه.

ثم اعلم أن الزبد يذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، ولا تضيع وقتك الثمين في كتابة التفاهات، وإن اعوجّ قلمك في أول الطريق فلن يصل النهاية، بل سوف يكسر قبل منتصف الطريق وإن أُعجب به الكثير، ثم تجد نفسك قد خسرت قلمك ووقتك فضلاً عن معجبيك.

❊❊❊

على أعتاب الروايات

مللتُ كل جليسٍ كنتُ آلفهُ إلاّ الكتابْ فلا يعدله إنسانُ
وعاشـرتهُ فأراني كل مكرمةٍ لـه عـلـي رعـاه الله إحـسـانُ

عن محمد بن علي النحوي قال: «ودّعَ رجلٌ صديقـًا له، فقال له: استعنْ على وحشةِ الغُربة بقراءةِ الكتب، فإنها ألسنٌ ناطقة وعيونٌ رامقة»[١].

فهذا الكتاب الذي وصفه الجاحظ وصفـًا بليغـًا في القرن التاسع الميلادي أصبح في القرن العشرين مهدداً بالإهمال ليعلوه الغبار على رفوف المكتبات، وكذلك هو في طريقه إلى الانقراض لأسباب عدة، رغم ما فيه من مادة جذّابة مشوقة وإخراج أنيق وطباعة مغرية.

ليهب الكاتب الفرنسي جورج ديهاميل للدفاع عنه بقوله: (الكتاب مهدد مستقبله لا بالمكروب، بل بانصراف جماهير البشر عنه، فهل هذا لأن الجماهير الآن أقل حبـًا للاطلاع منها في القرون الماضية، أو أنها أقل تعطشـًا للمعرفة؟ لست أقول شيئـًا عن ذلك، ولكني أقول أن الجماهير البشرية أخذت تُشبع شيئـًا فشيئـًا حاجتها للمعرفة دون الرجوع للكتاب ..).

لنرى واقع كلامه في عصرنا الحديث عزوف أغلب الناس عن قراءة الكتب العلمية والورقية المفيدة، ويزداد بكثرة وبقوة هائلة مع انتشار الكتب الالكترونية خاصة والأجهزة الذكية.

---

(١) الكتاب في الحضارة الإسلامية ، د. يحيى الجبوري .

ومع انفتاح باب الروايات والقصص الخيالية وانتشارها وازدياد عشاقها وقرّائها بغرض التسلية لا الفائدة، والاستمتاع بالقصة وطريقة سردها، وتقوية الجانب الأدبي للقارئ، وتمضية أوقات الفراغ وأماكن الانتظار فقط.

فالزائر للمكتبات يلاحظ رفوف خاصة بالروايات بكل أنواعها وأحجامها وفنونها، وكثرة مرتاديها في سباق لكل جديد منها ونشرها وتبادلها بين أقرانهم من فئات الشباب وخاصة المراهقين منهم للبحث عن الشهرة، وكأنها تشبه (موضة العصر).

ورفوف الكتب المفيدة لا يزورها ولا يرتادها إلاّ القليل النادر والباحث عن مراجع جامعية أو بحثية، فلا ضيّر في ذلك لأن لكل زمان قرّاؤه ومثقفوه فالقراءة عادة حسنة وإيجابية لو جعلها الشاب فيما يفيده وينفعه، ولا حرجَ في قراءة الروايات النزيهة والبعيدة عن الغرام والهيام والغزل والفحش والمثيرة للغرائز الشهوانية، وذلك لأن خطرها على الشباب وخاصة المراهقين منهم أكثر من نفعها وثقافتها وأدبياتها.

فمع بداية القرن العشرين ظهر بعض أدباء العرب الذين اهتموا بفن القصة والرواية، وكتابتها ووضعوا مؤلفاتهم الخاصة في هذا الشأن، وقاموا بترجمة بعض روايات الأدب العالمي إلى اللغة العربية دون تمحيص لها وعرضها على قيمنا الإسلامية والأخلاقية.

فقام بعض كتابنا ومثقفينا بمنافسة ومحاكاة الكُتّابْ الغربيين الذين يحاربون الفضيلة في كتابة الروايات ولا يراعون في ذلك الآداب الإسلامية، ولم يكتفوا بمحاكاتهم بل قاموا بتمجيدهم ولهجت الألسنة بالثناء عليهم، وأنهم كتّاب

وروائيون وعباقرة تلين لأقلامهم المفردات، وتميل معهم الثقافات حيث ما اتجهوا، وتشرئبُ إليهم الأعناق.

ونلاحظ بعضاً منهم يتنافسون في كتابتها بكل إبداع، ويتفننون في عناوينها لجلب القرّاء للمردود المادي من ورائها، وبعض دور النشر مخصصة لنشر الروايات سواءٌ الهابطة منها أو غيرها، وأكثرها لا فائدة منها وإن كانت قصصية أو أدبية بحد زعمهم.

« وأنه إذا التزم الروائي أو كاتب القصة بالضوابط الشرعية، بأن كانت روايته هادفة لتحقيق غرض مشروع، ولم تشتمل على الإسفاف أو الإثارة المحرمة أو الاستهزاء أو غير ذلك من المحاذير الشرعية، فلا حرج عليه في كتابته واشتغاله بالرواية والقصة، وليكن سببا في نشر الخير من خلال هذا الفن الأدبي المؤثر»[١].

ولو تأملنا خطر هذه الروايات على شبابنا والمراهقين منهم، واتجاهاتها وما تحمل بين طياتها من المصائب والشرور، سواء المكتوبة أو المترجمة للغة العربية.

فمثلاً: في إحدى الروايات التي ترجمها المنفلوطي إلى اللغة العربية، لم يقم بتغيير شخصيات القصة، ولم يقم بتغيير شيء من الوقائع، بل قدمها إلى العربية كما هي، والقصة تدور حول معركة بين النصارى والمسلمين، وكاتب القصة في الأصل نصراني، وأحداث القصة تجعلك تتعاطف مع البطل والبطلة النصرانيين، وتتمنى لو انهزم الأسطول الإسلامي أمام الأسطول النصراني.

وقد أفتى الشيخ: محمد بن صالح المنجد بقوله[٢]: (إن كانت هذه الروايات

(١) موقع الإسلام سؤال وجواب ، فتوى رقم (١٧٤٨٢٩) .

(٢) حكم الروايات ، ملتقى أهل الحديث .

تتضمن كذباً وقلباً للحقائق الشرعية والعلمية التجريبية كما في نظرية دارون (النشوء والارتقاء) فعلى المسلم أن يحذر منها وأن يشتغل بما يعنيه ويُفيده من علم نافع أو عمل صالح والاطلاع على القصص الواقعية وأحداث التاريخ ونحوها، وكثير من الأفلام وروايات الخيال الذي يسمّونه خيالاً علميا تتضمّن كثيرا من الكفر كجعل قضية الموت والإحياء بيد الخلق والقدرة على الإيجاد من العدم وأنّ العلماء في المختبرات يمكنهم الإيجاد من العدم أو جعل الحياة تدبّ في كائن جامد. . فلماذا يورط المسلم نفسه بقراءة ومشاهدة ما قد يُزعزع عقيدته أو على الأقلّ يضيّع وقته ويُشغله بما لا ينفع حتى وإن زعم بعض النّاس أنّ هذا من قبيل التسلية والترفيه فإنّ الترفيه لا يجوز أن يكون بمحرّم ووقت المسلم أجلّ من أن يضيع في هذه الترّهات، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**إنَّ مِن حُسنِ إسلامِ المرءِ تركَه ما لا يَعنيه**»[1].

وقد كثرت في هذه الأيام القصص والروايات التي تستهدف العقيدة والثوابت والقيم الإسلامية وتطعن في الأحكام وتثير الغرائز، ولما كانت النفوس ضعيفة والشبه خطّافة، راجت شرور هذه الروايات، وسرت بين الناس سريان النار في الهشيم.

ورافق ذلك تشويش المنحرفين ودعاة الحرية والانفتاح، الذين يعطون هذا الفكر المنحرف الحصانة من المراقبة والنقد، بل ومنع الاحتساب على الروايات والقصص.

وقد ركب كثيرٌ من ملاحدة وفجار العرب مركب الرواية لإيصال أوحال

(١) صحيح ابن حبان (٢٢٩)، خلاصة حكم المحدث : أخرجه في صحيحه.

أفكارهم إلى الناس، لأنهم عرفوا أنهم لا يستطيعون في بعض الأحيان التصريح بأهدافهم، فاتخذوا من تلك الروايات والقصص مطيّة لنشر ما يعتقدون بين الناس.

ولديهم دعوى يتمسكون بها، وهي أنه لا بأس من نشر هذا الإلحاد والفجور باسم حرية الفكر وحرية الرأي وحرية التعبير، وكثيرٌ منهم يتشدقون بمثل هذه المصطلحات ويجعلونها سلماً وجسراً يعبرون عليه لنشر ما عندهم.

والناظر في أحوال التغريب اليوم يرى أنهم ركبوا في سبيل تغريب الأمة كل مركب وسعوا إلى ذلك بكل سبيل، وولجوا ما استطاعوا من الأبواب والدروب واستفتحوا ما قدروا عليه.

فاقتحموا مجال الأدب فاسدين مفسدين، واستعملوا القوالب الأدبية لترويج أفكارهم ومناهجهم الفاسدة، فرأينا ـ والعياذ بالله ـ رواياتهم تدعوا إلى الإلحاد والكفر وتطعن في التوحيد والقيم والأخلاق والثوابت الإسلامية وتثير الغرائز والشهوات، وقصائدهم تقطرُ انحلالاً وأشعارهم الحداثية تفيض كفراً وزندقة[١].

***

(١) نظرات في القصص والروايات، للمنجد. . (بتصرف).

الصداقة الحقيقية

الصداقة هي عاطفة وعلاقة اجتماعية شائعة في المجتمع وسامية القدر وغزيرة الفائدة لمن أخلص النية لله تعالى فيها، وقد رغّب فيها الإسلام الحنيف لتكون المعاملة بين المسلمين بمودة ومحبة كمعاملة الصديق للصديق، واستحب الإيثار على النفس، وذلك أقصى ما يفعل الصديق مع صديقه.

فالصداقة الحقيقية هي التي تبقى بين شخصين ولا تزول لأي سبب من الأسباب وليست لحاجة دنيوية، يقضي حاجته منك ويتركك، بل الصداقة تقوى عندما يحتاج إليك صديقك وقت الشدة، وهذا ما نراه اليوم في هذا العصر يتخلى الصديق عن صديقه في الشدّة وأما في الرخاء فما أكثرهم، وقد صدق الشاعر حين قال[1]:

ما أكثر الأصحاب حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليل

فالصداقة الحقيقية تولد المحبة والبشاشة بين الأصدقاء، وتجلب لهم السعادة والطمأنينة، ويكون الصديق مع صديقه متكاتفاً معه، محباً له حافظاً له كرامته.

فعلى الإنسان أن يحسن اختيار الصديق ويتحرى في ذلك من يكون له أخاً لم تلده أمه، لأن اختيار الصديق مسألة هامة جداً يتوقف عليها صلاح المرء أو فساده، إذ أن المرء من جليسه، والقرين يقتدي بقرينه، والخليل يقتبس من أخلاق

(١) المحبة والصداقة ، فائز الحليفي (ص٣١) .

خليله، فكم رأينا من شباب انحرف عن الطريق الصحيح بسبب صديقه، وقد حذر الله تعالى في كتابه من الصديق السوء فقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

فجاء تحذير الله تعالى من هذا الصديق السوء والصاحب والخليل الفاسد العاصي لله والمحارب لدينه ولأهله، وإن رآك على معصية ومنكر لم يسارع في تنبيهك ودلالتك على الخير، وإنما يعزز لك فعل المعصية ويزينها لك، في حين أنه امتدح الصديق الحقيقي والصالح الذي يدل على الخير ويحذر من الشرّ والفساد وسماه من المتقين، بقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

فإذا فتشنا عن الصداقة الحقيقية وجدناها تشبه الجوهرة من حيث غلاء ثمنها وندرة جودتها، وقد قيل أن المستحيلات ثلاث: «الغول والعنقاء والخلّ الوفي» والأخوة أو الصداقة هما وجهان لعملة واحدة، فهما رابطة نفسية تورث الشعور العميق بالعاطفة والمحبة والاحترام، فالأخ أو الصديق الصادق هو من صدقك في قوله وعواطفه وقام باتخاذ مواقف ايجابية من التعاون والإيثار والرحمة والعفو عند المقدرة، ومن صفات أهل الجنة أنهم على سرر متقابلين[1].

وقد جاء في الحديث القدسي: «**قالَ اللهُ تعالى : وجبَتْ مَحبَّتي للمتحابِّينَ فيَّ، والمتجالسينَ فيَّ، والمتباذِلينَ فيَّ، والمتزاوِرينَ فيَّ**»[2].

وقد جاء أن أصدقاء السوء كلٌ يتخلى عن صاحبة يوم القيامة ويتبرأ منه ويقول: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١] فكل خليل

(١) رسالة قد تحدث شيئاً ، حسن بن جابر قاسم الحكمي الفيفي (ص٩١) .
(٢) الجامع الصغير (٦٠٢٠)، خلاصة حكم المحدث : صحيح.

يندب حظه من خليله، ويتحسر على ما فاته في دنياه من مصاحبة الأشرار.

وقد جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثًا يبين أن الصداقة والأخوة ركيزتان هامتان بهما يتحدد سلوك الفرد إمّا استقامة وإمّا انحراف! حيث قال: «**الرَّجُلُ علَى دينِ خليلِهِ فلينظُر أحدُكُم من يخالِلُ**»(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا أحبَّ أحدُكم أخاه في اللهِ فلْيُعلِمْهُ، فإنَّهُ أبْقَى في الأُلْفةِ، وأثْبَتُ في المَوَدَّةِ**»(٢).

قال أبو حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: العاقل يلزم صحبة الأخيار ويفارق صحبة الأشرار، لأن مودّة الأخيار سريعٌ اتصالها بطيءٌ انقطاعها، ومودّة الأشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالها، وصحبة الأشرار تورث الظن بالأخيار، ومن خادن(٣) الأشرار لم يسلم من الدخول في جملتهم(٤).

كذلك قال رَحِمَهُ اللَّهُ: العاقل لا يصاحب الأشرار، لأن صحبة السوء قطعة من النار، تُعقب الضغائن، لا يستقيم ودّه، ولا يفي بعهده.

وكم من صديقٍ ودّه بلسانه ... خؤون بظهر الغيب لا يتندّم
يضاحكني كُرهًا لكيْما أودّه ... وتَتبَعُني منه إذا غبتُ أسهم

ويروى عن الأصمعي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه سمع رجلاً من الأعراب يقول: «من أعجز الناس من قصّر عن طلب الإخوان، واعجز منه من ظفر بذلك منهم فأضاع مودتهم، وإنما يحسن الاختيار لغيره من أحسن الاختيار لنفسه».

---

(١) صحيح الترمذي (٢٣٧٨)، خلاصة حكم المحدث : حسن.
(٢) صحيح الجامع (٢٨٠)، خلاصة حكم المحدث : حسن.
(٣) خادن : صاحب .
(٤) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لأبي حاتم (ص٨٧) .

وليس أخي من ودّني بلسانه ولكن أخي من ودّني في النوائب
ومن ماله مالي إذا كنتُ معدماً ومالي له إن عضّ دهرٌ بغارب
فلا تحمدنْ عن الرخاء مؤاخياً فقد تنكر الإخوان عند المصائب
وما هو إلاّ كيف أنت ومرحبا وبالبيض رَوّاغ كرَوْغ الثعالب

فالصديق صاحب الصداقة الحقيقية السمحة التي تنبع من القلب والفطرة السليمة يكنّ لصديقه الحب والاحترام ولا يخون صديقه ولا يغدر به، ولا يبحث عن مصالحه الخاصة على حساب صديقه، ولا يفشي سرّه حتى يكون عند حسن ظنه، ولا يكون مثل العدو ينقلب عليه من أصغر زلّة ليسلبه ويأخذ ممتلكاته انتقاماً لنفسه الأمارة بالسوء، والصديق الصدوق من يتحمل زلات صديقه لتبقى المودة ويبقى الإخاء، ويعفو عنه.

فالصداقة المبنية على المصالح لا تدوم، فهي تنتهي بانتهاء المصالح، وصداقة اللذة والعشق والشهوة لا تدوم، وكل هذه الصداقات وغيرها من الأنواع الكثيرة لا يبقى منها سوى اسمها وذكرياتها البائسة التي لا تذكر إلاّ نادراً، ولن يبقى إلاّ الصداقة الحقيقية التي منشأها الإسلام ومنبعها الفطرة السليمة وصفاء القلوب وراسخةٌ في النفوس الطيبة النقية، وغيرها يزول بتاتاً.

فمي حظي بأصدقاء كثيرين صالحين فقد ساقت له الأقدار خيراً كثيراً، ففي الصداقة ابتهاج القلب وسروره عند لقاء الصديق، وفيها لذة روحية ولو في حال غياب الصديق[1] ولن تجد صديقاً خالياً من العيوب والنقص والزلات، ولكن الكريم من تغاضى عن زلات أصدقائه، ولا تكثر العتاب حتى لا تنقب الأمور

(١) الصداقة بين العلماء : محمد الحمد .

عكس ما كنتَ تريد وتتمنى.

وفقد الأصدقاء يترك في النفس أثراً عميقًا ووحشة بين الناس، وربما وقع في ظنه وجرى على لسانه أن لا يجد بعد أولئك الأصدقاء من يماثلهم في إخلاص المودة والوفاء بالعهد، وقد حفظ عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى «أن من مات أصدقاؤه ذلّ»، وقد يصبح وحيداً كالغريب لا صديق له.

هذه قصيدة كتبها الشاعر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتغمده بواسع رحمته[1] قبل وفاته بأيام قلائل، يبين فيها ما يجده في نفسه من شعور صادقٌ بالمحبة والإخاء تجاه زملائه الذين جمعته بهم مقاعد الدراسة، يصف مشاعره بعد فراقهم وهو ما زال بينهم، ويصف الصداقة الحقيقية التي عاشها معهم على مدار ست سنوات مضت عليهم؛ فمما قاله في القصيدة:

تعانقت القلوب بكلِ فنّ ... ورامت في تعانقها الفنونُ
ألفنا البعض من بعضٍ وإنّا ... لبعضٍ لا نكنّ ولا نخونُ
كما الإخوان تربطهم صلاتٌ ... يؤسسها بهم قلبٌ حنونُ
فلا تفريق بين الصحب مهما ... يكن إن لم تفرقنا المنونُ
فنحن اليوم بالأجساد جمعٌ ... وبعد اليوم أفئدةٌ نكونُ

فقد صوّر ما يخالجه في نفسه من مشاعر الأخوة والصداقة مع زملائه وأحبابه، ويأسى على قادم الأيام التي سيكون فيها فراقهم لزامًا ليذهب كل منهم لحال سبيله، ولكن قضاء الله وقدره كان أسبق فقد اخترمته المنية وفارق الدنيا قبل فراق أصحابه في مقاعد الدراسة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له.

---

(١) قصيدة "شجو الفراق" للشاعر حسن بن جابر قاسم الظلمي الفيفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال الحسن البصري: «لم يبق من العيش إلا ثلاثة: أخ لك تصيب من عشرته خيراً، فإن زغت عن الطريق قومك، وكفافٌ من عيش ليس لأحد عليك فيه تبعة، وصلاة في جمع تُكفى سهوها، وتستوجب أجرها، والنصيحة ضرورية للمؤمن»[١].

هذه أبياتٌ للإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الصداقة الحقيقة[٢]:

إذا المرء لم يرعاك إلا تكلفا ... فدعه ولا تكثر عليه التأسفا
ففي الناس أبدال وفي الترك راحة ... وفي القلب صبرٌ للحبيب ولو جفا
فما كلّ من تهواه يهواكَ قلبه ... ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة ... فلا خير في خلّ يجيءُ تكلفا
ولا خير في خلّ يخونُ خليله ... ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشًا قد تقادم عهده ... ويظهر سراً كان بالأمس قد خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها ... صديق صدوق صادق الوعد منصفا

❊❊❊

(١) تاريخ بغداد (٦ / ٩٩).
(٢) ديوان الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أعداء النجاح

ذكر الله تعالى في كتابه العظيم آية عظيمة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥] فمهما بلغت من العلم والنجاح والذكاء فما زال علمك قليلاً ضئيلاً، ومهما بلغت من النجاح أعلى مراتبه فلن تبلغ قمته، ومع ذلك لن تنثني عزيمتك لأن النجاح عادة يجدها الإنسان في نفسه وتزداد كلما طوّر الإنسان نفسه، لأنك لم تستجيب للملل ولن تعرف الكسل، وتحاول الصعود للقمة مهما تعثر بك الزمن، ولو غلبك على نفسك أعداؤك وحسادك مهما بلغوا، فلن تسقط بإذن الله لأن لك همة تنطح بها الثريا وعزم كعزم الأسود.

ومن يتهيّب صعـود الجبال يعش أبـد الدهر بين الحفر

أيها الناجح:

اعلم أن هؤلاء الأعداء سوف تجدهم في طريقك أينما اتجهت، إن سرت يميناً وضعوا الشوك في طريقك، وإن اتجهت يساراً وضعوا العقبات أمامك، وهم حسّادك الذين لا يريدون لك نجاحاً لأنك فقْتهم قدراً، فتجد قلوبهم تحمل الحسد والحقد الأسود وتحمل البغض لنيلك مرتبة أعلى منهم، فلو تصفحت التاريخ وجدتهم على مرّ العصور والدهور، ولم يخلو منهم زمان ولا مكان، لأنهم سلالة لن تنتهي ولن تنقطع، لأنهم تلامذة إبليس الذي علمهم الحسد وتخرجوا من مدرسة الحسد الابتدائية والحقد والضغينة فعندما حُسِدَ آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان سبباً في خروجه من الجنة.

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالناس أعداءٌ له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً ومقتاً إنه لذميم

يقول المثل: (إذا ركلك شخص من الخلف فاعلم أنك في المقدمة) فإذا تكلم عنك حسادك من خلفك فاعلم أنك فقتهم منزلة وأنك تجاوزتهم بعقلك وجهدك وتعبك، فلن يجتمع الفشل والنجاح أبداً.

وإذا أدار الله نشر فضيلةٍ طويت أتاح لها لسان حسود

فلا تضق ذرعاً إذا واجهت صعوبة ولا تيأس فإن هذه المواقف تصقل الرجال وتقدح العقول وتشعل الهمم، واسلك طريقاً منتظماً لا اعوجاج فيه فهو طريق النجاح المستمر، فالعود لا يفوح عطره حتى يحرق، ومن ثبت نبت، ومن جدّ وجد، ومن صبر ظفر، ومن لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة.

فلا تنشغل بالرد على حسادك لأن ذلك يفرحهم؛ بل تجاهلهم، فلو أعطيتهم شيئاً من وقتك لأعلنوا انتصارهم عليك، ولا تنظر للخلف واذهب في طريقك، فقد ثبت أن الغزال عندما يطارده الأسد بمجرد التفاتة واحدة للخلف أعلن انهزامه فأصبح فريسة لذيذة للأسد، ولو استمر في طريقه دون التفات لنجى ونجح، فلا تلتف لحسادك في الخلف، بل تجاهلهم ولا تكن مثلهم تحمل الحقد عليهم؛ لأنه:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب
إن الأفاعي وإن لانت ملابسها عند التقلب في أنيابها العطب

فالكريم الشهم الذي لا يهمه شأن حساده تجده كالنخلة الطويلة الباسقة تؤتي ثمارها ورطبها وخيراتها، وإذا رميت بالحجارة ردت عليك بالرطب والتمر، واعمل بصمت ودع إنجازاتك تتحدث عنك.

كـن كالنخيل عـن الأحقـاد مرتفعـًا بالصخر يرمى فيلقي أطيب الثمر

فاعلم أن طريق النجاح محفوف بالمخاطر والأشواك والنكبات والحساد وهو صعود دائمـًا وثبات، أما طريق الفشل والانحراف فهو منحدر، ولا يهمك من دنت نفسه ولم يفكر فيها لينتشلها من قاع الفشل ويزيل عنها غبار الكسل وهوى النفس الأمارة بالسوء.

حسادك وأعداء الناجحون والنجاح يسعون لتشويه سمعتك في المجتمع، فربما كانوا من أقرب المقربين لك وأنت لا تعلم، ربما كان زميلك في العمل ربما كان قريبك في العائلة ربما وربما. . وأنت لا تعلم عن ذلك شيئـًا فتفاجئ بنفسك وقد أصبحت في أفواه الناس يتحدثون بك.

فتوكل على الله واعلم أنهم لن يضروك شيئـًا مهما فعلوا، واجعل في ذلك قدوتنا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كيف حسده أقرباؤه وصاروا أشد أعدائه، وصبر وثبت على طريقه ولم يهتم بهم، ولم يضره منهم شيء أبداً.

وانظر إلى الناجحين في هذه الحياة الدنيا من المسلمين وغير المسلمين كيف جالدوا من أجل الثبات للوصول إلى أعلى القمم، وبعد التعب راحة، وبعد العسر يسرين بإذن الله.

❊❊❊

مع المعلم

لــولا المعلــمُ مـا قـرأتُ كتابــًا ... يومـًا ولا خـطَ الـحـروفَ يراعي
فبفضلـه جـزتُ الفضـاءَ محلقـًا ... وبعـلمه شــقَ الـظــلامَ شعاعي

أهديك أخي وزميلي المعلم رسائل وجواهر أسأل الله أن تكون مفتاح خير لي ولك:

الرسالة الأولى:

اعلم أخي المعلم – وفقك الله – أنك تحمل رسالة عظيمة رسالة سماوية هي رسالة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، رسالة تشرفتَ بحملها من بين الناس، هي رسالة التعليم ومهنة التدريس أشرف المهن وأجلّها وأفضلها، لتعلم الناس الخير «**خيرُكم مَن تعلَّم القرآنَ وعلَّمه**»[1] فأنت كل يوم في جهاد عظيم غير جهاد الرمح والسنان وهو جهاد الباطل ودحره، تجاهد الشهوات والشبهات؛ جهاد نشر العلم بين الطلاب.

فاحمد الله أخي المعلم أن الله اختارك من بين الناس وشرّفك بهذه المهمة العظيمة لتقف أمام الطلاب وأمام فلذات الأكباد، فليس بالأمر السهل واليسير واطلب من الله العون والتوفيق لتعلمهم أمور دينهم وتغرس في قلوبهم حب الله وتوحيده وحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطاعته وحب الصحابة والترضي عنهم، وحب الوطن والمحافظة عليه وعلى مقدراته، وحب ولاة الأمر ومعرفة

(١) صحيح البخاري (٥٠٢٧).

حقوقهم والدعاء لهم وحب العلم والعلماء وتقديرهم، فكل ولي أمر جعل ابنه أمانة في عنقك، لتعلمهم وترشدهم إلى الطريق الصحيح، فاحفظ الأمانة وما استرعاك الله.

فالمعلم يحملُ العبء الكبير، وعلى عاتقه أمانة عظيمة أمانة تربية النشء وتعليمه؛ ومع ذلك لم يسلم عرضه من الكلام القبيح والقدح ورميه بشتى التهم من قاصري الفهم وصغار العقول.

فالمعلم خادمٌ لدينه ووطنه ومجتمعه في مجال عمله التربوي، ولو تلاحظ أن الطلاب يجعلون المعلم قدوة لهم في كل شيء ويسمعون له أكثر من غيره، فعلّمهم ما ينفعهم ويفيدهم في الدارين، فليس كل من وقف أمام الناس وخاصة الطلاب وإذا تكلم يأخذوا منه ويستمعوا له، ويستوعبوا منه، لا والله إلاّ المعلم فقد حباه الله مكانة في قلوب أبنائه الطلاب بها يسهل الوصول إلى قلوبهم فيملؤها بما يستطيع من العلم والفوائد.

۞ الرسالة الثانية:

أخي المعلم؛ حصّن أبناءك الطلاب من الأفكار الضالة والمنحرفة، فنحن في زمن خطير تتلاطم فيه الفتن تلاطم الأمواج في الليلة الظلماء، فتن كقطع الليل المظلم، فتن تجعل الحليمَ حيرانا والعاقلَ مذهولا، علمهم وبين لهم المنهج الوسط، منهج الوسطية والاعتدال، منهج أهل السنة والجماعة والسلف الصالح الذي تسير عليه هذه البلاد المباركة بقيادتها الموفقة بتوفيق الله، بين لهم خطر الأفكار المنحرفة التي تجر الويل والحسرة في الدنيا والآخرة، حذرهم من خطر ومغبّة حب الاستطلاع في برامج التواصل وما يبث فيها من الشبهات حول ديننا

وبلادنا وولاة أمرنا وعلمائنا الأجلاء، وها نحن وللأسف نرى فكر الخوارج والدواعش يتخطف صغار السن وصغار العقول ومن ليس له علمٌ ينجيه ويحتمي به من أفكارهم وضلالاتهم الخطيرة من أبنائنا وأبناء الوطن العربي والإسلامي نسأل الله السلامة والعافية.

أخي المعلم اجعل لك قلماً شاهداً لك تكتب به وتنشر به الخير بين الناس بمواقع التواصل وتحذرهم من الغلو والتطرف والضلال والانحراف، أو زاوية في صحيفة تبث عن طريقها العلم الشرعي والخير للناس.

۞ الرسالة الثالثة:

إخواني المعلمين. . أنتم على ثغر من ثغور حماية الدين والوطن، وعلى منابر نشر العلم وغرسه، فأنتم في الطريق الصحيح فلا تقصروا ولا تلتفوا إلى ما ينشر بمواقع التواصل وما يقال عنكم من أهل الأهواء والفتن، وأصحاب القلوب المريضة الذين يتصيدون الزلات ويصطادون في الماء العكر، واعلموا أن الأعداء يريدون هدم التعليم في بلادنا بزعزعة ثقة الناس في المعلم، وتقليل مكانة المعلم في المجتمع، فلن يستطيعوا ذلك بإذن الله، وليعلم الكل أن ذلك لن يزيدكم إخواني المعلمين إلاّ عزة ورفعة ونشاطاً في التعليم ومكانة عالية في المجتمع ودفاعاً عن ديننا ووطننا، تغافلوا عنهم واهتموا بأبنائكم وطلابكم علموهم ما ينفعهم في الدارين وبينوا لهم حقوق الله تعالى علينا في ولاة الأمر من السمع والطاعة والحب والدعاء لهم وأن نكون يداً واحدةً معهم ضد كل من تسول له نفسه العبث بأمن الوطن، بينوا لهم مكانة العلم والعلماء وأنهم مخبرون عن الله وعن رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنهم مرجعنا الأول والأخير في طلب العلم

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾ [الأنبياء: ٧]، بينوا لهم حرمة الدماء وجرم المساس بها وأنها أعظم عند الله من هدم الكعبة المشرفة، بينوا لهم حقيقة المواطنة وأن هذا الوطن وطن التوحيد وبلاد الحرمين الشريفين ومهد الرسالة، المملكة العربية السعودية أفضل البلاد على وجه الأرض.

هذا الوطن والله ليس كسائر الأوطان، (وولاة أمر هذه البلاد أفضل ولاة عرفتهم كما قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، يقيمون شرع الله ويحكمون بالعدل بين الرعية.

ووالله إن بعض مدارسنا وبعض طلابنا يفتقرون لمن يحصنهم دينياً وسلوكياً وتربوياً وفكرياً واجتماعياً، لا تكتفي بالمناهج فقط فكن أنت أخي المعلم شمعة تحترق لتضيء طريقهم، فتكسب بذلك الأجر والمثوبة من رب العباد ..

وفقني الله وإياكم لما فيه صلاحنا في الدارين.

❊❊❊

مع الاختبارات

بهذه المناسبة السعيدة - الاختبارات - والتي تتكرر علينا كلَ آخر فصلٍ دراسي لحصد الثمار اليانعة لمن جدّ واجتهد، تجمع الأسرة شتاتها وتعطلُ مشاغلها لتضع أيام الاختبارات نصب عينها، فالكل في ترقب ويشعر بالقلق والرهبة، والكل حريص على تفوق أبنائه وطلابه وتلاميذه، ويحسب الوقت حساباً جيداً دون تفريط، والكل يطمع ويتمنى التوفيق والنجاح في الاختبارات، ومع قربِ موسم هذه الاختبارات أحببتُ أن أقدم لكم ثلاث رسائل:

۞ الرسالة الأولى: أخي المعلم:

اعلم أن الرفق ما وضع في شيء إلاّ زانه، وما نزع من شيء إلاّ شانه، كن رفيقاً كن رحيماً كن عطوفاً، واجعل قدوتك رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فهو المعلم الأول للبشرية، كان رحمة على أمته ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فكن أنت شمعة تنير طريق السائرين وترشدُ دروب الحائرين، وكن جسراً لطلابك ليصلوا إلى معرفة الله ورسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ومعرفة دينه.

ففي هذه الأيام يجتاحُ أبناؤنا الطلاب الخوف والرهبة والقلق، تجد أحدهم سارح الذهن ترتعد فرائصه مع اقتراب هذا الموسم خوفاً من الإخفاق، هوّنْ عليهم وخفف عليهم قلق هذه الأيام بابتسامتك الجميلة المشرقة كل صباح، شجعهم وحفزهم على الجد والاجتهاد، اربطهم بخالقهم في هذه اللحظات العصيبة واللجوء إليه عند الشدائد، ذكرهم بذكر الله ولزوم الاستغفار ليفتح

عليهم ما استغلق عليهم من الفهم.

كن خيرَ مُعينٍ لهم بعد الله تعالى على تجاوز هذه العقبة ومغادرة هذه الأيام بكل سلامة وتوفيق، فالمعلم هو الأب الحاني داخل الصرح التعليمي الذي يلجؤون إليه بعد الله تعالى، ليجدوا عنده الأنس من هذه الاختبارات التي يرونها شبحًا مخيفًا وكابوسًا خطيراً يريدون انتهاءه بأي هيئة كانت، وازرع فيهم الابتسامة والتفاؤل والثقة بالنفس، ويبتعدوا عن اليأس والاحباط لئلا يكونوا فريسة سهلة له، وأنهم بنهاية هذه الاختبارات ينتقلون إلى مراحل أعلى تثبت وجودهم ومكانتهم في المجتمع.

۞ الرسالة الثانية: عزيزي الطالب:

أسأل الله لك التوفيق والسداد والعون على هذه الأيام التي تجهدك نفسيًا وبدنيًا وعقليًا، وتذكر أنك تختبر في مناهج أقل من قدراتك العقلية والذهنية، وتذكر أن هذه الأيام هي حصاد ما زرعته طيلة فصل دراسي انتهى.

فاجعل وقتك من ذهب في هذه الأيام، وافتح عقلك وقلبك وسمعك وقواك الذهنية للمذاكرة والاستذكار والجد والاجتهاد، ولا تنسى أن التخطيط المبكر والإعداد المسبق للمذاكرة مهم في غاية الأهمية، والمكان والوقت المناسب يرسخ المعلومة ويثبتها، وأفضل الأوقات ابتداءً من الساعة الرابعة صباحًا وحتى الثامنة، فضلاً عن تأثير هواء الصباح «نسيم الصبا» الأكثر نقاءً والمنعش للحالة النفسية، وكذلك من الخامسة عصراً حتى العاشرة مساءً، هي أوقات ملائمة للاستذكار حيث يصل هرمون التركيز «الغدة الكظرية» إلى أعلى نسبة منه في إفراز قوة التركيز، وما بعد الحادية عشر يقل إفرازه ويبدأ في الهبوط حيث تميل

النفس إلى الراحة والنوم، ولا بد من الهمة القوية التي تسهل عليك عناء كل شيء، ولا تركز على مادة على حساب أخرى، واجعل كل همك التعلم وأما النجاح فسيأتي تبعاً للتعلم وتذكر بين كل حين وآخر الاستغفار ليفتح الله عليك.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما استغلق عليّ فهم مسألة إلاّ لجأت إلى الاستغفار حتى يفتحه الله عليّ» وادع الله تعالى ملحاً في طلبك «أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء «ربّ اكشف عني ربّ اشرح صدري، ربّ ذكرني ما نسيت ربّ ألهمني رشدي، ربّ علمني ما جهلت، ربّ استودعك ما حفظت فألهمني به ... إلخ.

تذكر دائماً طعم النجاح والتفوق فاجتهد لتناله، واعلم أنك الآن تجني ثمرة حصادك، واثبت على تفوقك دائماً وتجنب السهر واطلب من والديك الدعاء لك، واعلم أن وراء كل توفيق دعوة صادقة من الوالدين، فلا تستهين بدعائهما، واطلبهما الدعاء لك بالتوفيق والسداد فدعوتهما مستجابة، ثم احذر اصطحاب البرشام واعلم «أن من غش فليس منا» ولا تحرج نفسك ولا تجني على مستقبلك فهو عادة محرمة وقبيحة.

ثم انتبه من هفوات الطريق وعثراته، وتجنب أصدقاء السوء فلا تصحبهم بحسن نية أو بغيرها، فهم والله شرٌّ ووبالٌ عليك وعلى مستقبلك، واحذر خفافيش الظلام الذين ينتشرون أيام الامتحانات بمنشطاتهم ومخدراتهم وإغرائهم بتلك الجرعة الخدّاعة التي تمنحك عقلاً ناضجاً للاستيعاب والحفظ. . فاحذر ثم احذر لصوص الأوقات والمذاكرة الجماعية، ولصوص الأخلاق والعادات السيئة، ولصوص العقول والحبوب المنشطة، ولصوص الآمال المتشائمة والمثبطة، فكم

والله أضاعوا شاباً في مقتبل العمر وهو غافل لا يدري ما وراء ضحكتهم وابتسامتهم الخادعة من تخطيط مجرم.

۞ الرسالة الثالثة: لولي الأمر المكرم:

حفز أبناءك للجد والاجتهاد، اسمعهم كلمات إيجابية ترفع معنوياتهم، كن قدوة لهم في المحافظة على الوقت، وفي النوم المبكر والاستعداد والاستذكار، فهم بأمسّ الحاجة لك ولدعواتك هذه الأيام، كم من أبٍ لا يعلم عن أولاده شيئاً، وكم من طلاب ضاعوا بعد الامتحانات بسبب الاهمال من ولي الأمر، وقت قصير بعد الامتحان كفيل بضياع ابنك أيها الأب الغافل عن فلذة كبده، سويعات قصيرة من الاختبار إلى الظهر تحدث فيها ما لا تحمد عقباها، ربما ضياع، ربما تفحيط، ربما مخدرات، ربما سجن، ربما ضحية قيادة متهورة، ربما سيجارة، وربما. . نسأل الله السلامة للجميع.

وإن ذهابك بأولادك إلى المدرسة وإعادتهم بنفسك في أيام الاختبارات يقيهم شراً كثيراً بإذن الله، وإن ما يحدث من السوء والفساد عند المدرسة وخارجها أمرٌ خطير للغاية، ومسؤولية الآباء في هذه الأيام تعظم وتكبر، فمع انشغال إدارة المدرسة وطاقم التدريس بالإعداد للاختبارات يحدث انفلات من بعض الطلاب، وربما تقع منهم - والعياذ بالله - المصائب في الدين والأخلاق التي لم تقع منهم في الفصل الدراسي كله، تفرّغ لأبنائك أيها الأب الغالي في هذه الأيام، وفي الحديث «كلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيته». رواه البخاري ومسلم

انتبه لأبنائك أيها الأب، تعهدهم كل حين، استودعهم ربهم، حصنهم كل صباح، فلا تدري ماذا يجري وماذا يحدث بغيابك. . والله المستعان

اللهم إنا نستودعك أبنائنا وطلابنا وفلذات أكبادنا من الضياع، اللهم إنا نعيذهم بك من الشيطان الرجيم وأعوانه من الإنس، ومن شرّ كلّ ذي شرّ أنت أخذٌ بناصيته إنك على صراط مستقيم.

***

رسالة إلى الطلاب

رغبة في التعاون معك أخي وحبيبي الطالب حاولت أن أضع بين يديك خمسة عشرة فقرة لعلها تشد من أزرك وتوفر عليك جهدك وعناءك وتعبك في المذاكرة، وخاصة ونحن على أبواب موسم الامتحانات والله أسأل أن ينفعك بها؛ لذا تذكرها قبل أن تشرع في المذاكرة:

* لابد من الهمة القوية التي تسهل عليك عناء كل شيء.
* تذكر أن قدراتك العلمية أكبر من هذه المناهج ولذا فهي ستبدو أسهل مما تتوقع.
* الاستغفار عند استغلاق الفهم، قال ابن تيمية: «ما استغلق علي فهم مسألة إلا لجأت إلى الاستغفار حتى يفتحه الله علي».
* الدعاء واللجوء إلى الله تعالى، والمحافظة على الصلاة قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].
* تذكر دائماً طعم النجاح والتفوق واجتهد لتناله.
* أنت طالب متميز فاثبت على هذا التميز طوال حياتك.
* تذكر أن الجميع يشعر بتعبك وجهدك وقلقك فلست وحدك الذي تشعر به.
* خذ قسطاً من الراحة بين كل فصل وفصل أو بين كل وحدتين وجدد نشاطك.

* كرر كل ما حفظته ثم راجعه مع نفسك في صمت ثم اكتبه على ورقه ثم راجعه مع نفسك مرة أخرى واجعل من يستمع لك.
* تجنب السهر فهو مجهدٌ لنفسك وذهنك.
* قم قبل صلاة الفجر (بساعة ونصف) ثم صل لله ركعتين وادع الله تعالى لك ولزملائك بالتوفيق والتيسير وأن يعينك ثم ابدأ المذاكرة فهي أحسن أوقات الاستيعاب.
* قبل أن تخرج في الصباح اطلب من والديك الدعاء لك.
* عند ذهابك للامتحان تجنب الركوب مع المتهورين والمفحطين لأن ذلك سيجر لك ولأهلك الويلات والحسرات، واجعل من يوصلك إما أبوك أو أخوك، أو السائق الخاص، أما إن كانت المدرسة قريبة فاجعل ذهابك مشيًا على الأقدام فوق الرصيف واعلم أن المشي رياضية جسمية صحية كاملة وأفضل أوقاتها الصباح، لأن الهواء في أحسن نقاوته حيث يوفر لك الطاقة وكذلك يقوي الذاكرة ويذهب كدر وضيق النفس واحذر من هفوات الطريق، وتجنب قطع الشارع والطريق العام إلا بعد التأكد من خلوه من السيارات والالتفات يمينًا وشمالاً للتأكد.
* تجنب اصطحاب البرشام وتأكد بأنك بالغش تجني على نفسك وعلى مستقبلك، وهو عادة سيئة وقبيحة ومحرمة، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَن غشَّنا فليس منَّا»**[1].

(١) صحيح ابن حبان (٤٩٠٥).

* تـــذكر أن بـنهاية أسابيـــع الاختبـارات سوف تنتقل إلى مراحل تعليمية أعلى وأوسع تشعرك بمكانتك وقيمتك في المجتمع.

أسأل الله الحي القيوم بفضله وكرمه أن ييسر على الطلاب اختباراتهم ويسدد خطاهم ويوفقهم ويجعل التوفيق حليفهم في الدارين، وأن يسهل عليهم وفتح عليهم ما صعُب، ولا سهل إلا ما جعله الله سهلاً، وأن يجتازوها بخير وتوفيق ويتمتعوا بإجازة سعيدة لا يكدرها همٌ ولا غمٌ ولا حزن يا رب العالمين.

***

ما بين الاختبار وصلاة الظهر

في كل صباح يدخل أبناؤنا وفلذات أكبادنا إلى قاعات الامتحانات ليحصدوا زراعة عام كامل، فمن جدّ وجد ومن زرع حصد ومن سار على الدرب وصل، فكل طالب مشغول باختباراته وتأسيس مستقبله، وكل أبٍ وربٌّ أسرة مشغول بعمله، وكل مجرم يترقب هذه اللحظات والساعات بشغف ليتسنى له ما أمْلَت عليه نفسه الخبيثة ليبحث عن فريسة تكون ضحيته إما في التدخين أو المخدرات والمنشطات للمذاكرة اليومية أو ضحية تفحيط أو تعليم قيادة أو فعل جريمة، يخرج الطلاب من المدارس وبينهم وبين صلاة الظهر ما يقارب ثلاث ساعات والأب مشغول عنهم، ولا يدري أين ذهب ولده وقد تأخر عن البيت، ربما رجع ورائحة التدخين تنبعث من فمه وملابسه، وربما جرّب حبة أو حبتين من المنشطات ليتفوق على أقرانه، وربما عاد والأسى يملأ جبينه والحزن يظهر عليه لما وجد من مضايقات من قرناء السوء.

فهذه السويعات القليلة التي تعقب الاختبار إلى صلاة الظهر من أخطر الأوقات على طلابنا وأبنائنا، ينتشر فيها أصدقاء السوء في كل مكان وأمام المدارس للبحث عن فريسة لهم يصطادونها، فمن هو الضحية إنهم طلابنا وأبناؤنا وفلذات أكبادنا فربما كان ضحية سيجارة، وربما ضحية مخدرات بحجة أنها منشطات للمذاكرة والاختبار، وربما كان ضحية سيارة في تفحيط أو تجمهر، وربما اصطادوه ليتعلم القيادة، فصار ضحيتها، وكم من ضحايا بريئة، فكم

من أنفس بريئة قتلت، وكم من أعراض طاهرة انتهكت، وكم من عادات ومخالفات ارتكبت، والآباء لا يعلمون عنهم شيئًا، فالحذر الحذر أيها الآباء من الغفلة عن الأبناء في هذه السويعات، أوصلوهم لبيوتهم قبل أن يوصلهم من أضمر لهم شراً، حذروهم من مغبة التفريط في هذه اللحظات، تعهدوهم استودعوهم ربهم، حصنوهم كل صباح، علموهم دعاء الخروج من المنزل (بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلاّ بالله) ليحفظه الله بحفظه ويرعاه برعايته، فكلكم راع ومسؤول عن رعيته.

ثم احذر أيها الطالب من الانجرار وراء هذه الصحبة السيئة بحسن نية أو بغيرها أو بحجة التعرف عليهم، ففيها من الأضرار عليك وعلى سمعتك وعلى مستقبلك ما الله به عليم، فربما لحظة تعقبها حسرة وندامة، وربما زلة أوقعت في حبال المعصية والإدمان.

نسأل الله أن يكفينا ويكفي طلابنا وأبنائنا شرّ هذه الزمرة الفاسدة في المجتمع.

اللهم وفق الطلاب والطالبات في اختباراتهم ويسر أمورهم وافتح عليهم واجعل التوفيق والنجاح حليفهم، ونستودعك اللهم هؤلاء الطلاب من شرّ كل ذي شرّ، ومن شرّ الصحبة السيئة وأصدقاء السوء الذين يتربصون بهم الدوائر.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

❊❊❊

مات طالباً

نحن في موسم يتجدد كل عام مرتين بأفراحه وأتراحه، فمن الطلاب من يكون التوفيق والنجاح حليفه ومنهم من يخفق في ذلك بسبب إهماله وإهمال أسرته له.. فأوجه رسالة تربوية حارّة إلى أولياء الأمور:

كم مرة نسمع في موسم الاختبارات «مات طالبًا» وليعلم الجميع أن قضاء الله وقدره قبل كل شيء، ولكن الأسباب لها أهميتها، فالأسرة وبالذات ولي الأمر هو السبب!! يعطي ابنه سيارة غير مباليًا بأرواح الآخرين وممتلكاتهم، أين موقف الأسرة من هذا؟

لنرى هذه الأيام ويتكرر أمام أعيننا ذلك ـ وبكل أسف ـ بعض المراهقين يقود سيارته بسرعة جنونية تحمل في داخلها الدم الأحمر أو الموت أو الإعاقة الدائمة، ومعه مجموعة من زملائه الشباب المراهق؛ أين دور الآباء في التعاون مع المدرسة ومع رجال الأمن في هذه الأيام؟

أخي ولي الأمر:

احفظ ولدك؛ ولتعلم أنك مسئول عن ابنك، فإن كنت مشغولاً فأرسل من يأتي به إلى المدرسة ويأخذه منها بعد انتهاء الاختبارات، حتى لا تفجع به آخر النهار ـ نسأل الله العافية والسلامة ـ فلا يكون فريسة سهلة تخطفه الأيدي الآثمة الفاسدة، ولا يكون ضحية شاب متهور في حادث سرعة أو تفحيط أو تهور.

فكم والله سمعنا من أسرة كانت الفرحة تغمرها والسعادة تعلو محياها بقرب تخرج ابنها ونجاحه، ولكن سرعان ما انكسرت هذه الفرحة والسعادة ثاني أيام الاختبارات أو تاليها، وعاشت الأسرة في حزن عميق وكربٍ شديد حزنـًا وألمـًا طوال العام بسبب فقدها لابنها وزهرة بيتها وفلذة كبدها في حادث أليم لم يرى مثله؛ بسبب سرعة متهورة أو تجمهر في مكان تفحيط أو مصاحبة مراهق يقود سيارة.

فكم والله يقع اللوم على والده الذي أعطاه سيارته أو منحه سيارة مقارنة له بأقرانه وما زال في سن يحجرُ عليه التصرف، جاهلاً في عقله وجاهلاً بمستقبله وجاهلاً في تصرفه، ليهلك بها الحرث والنسل، فربما قتل بها نفسه أو زميله أو رجلاً شيخـًا كبيراً يدبّ ماشيـًا على قدميه في طريقه للمسجد، فتكون وبالاً عليه وعلى أسرته وعلى مجتمعه ومدرسته.

فلماذا يا ولي الأمر تتساهل بها الأمر الخطير، وكأنه لا يعني لك الأمر شيئـًا. . فحتى لا يشغلك ولدك المراهق لا تشغل به الآخرين بمنحه سيارة إلاّ وهو يستحقها ويعي كيف يتصرف بها.

أخي ولي الأمر. . وكم من طلاب ضاعوا بعد الامتحانات بسبب الإهمال من ولي الأمر، وقت قصير بعد الامتحان كفيل بضياع ابنك أيها الأب الغافل عن فلذة كبده، سويعات قصيرة من الاختبار إلى الظهر تحدث فيها ما لا تحمد عقباها، ربما موت، ربما إعاقة، ربما ضياع، ربما تفحيط، ربما مخدرات، ربما سجن، ربما ضحية قيادة متهورة، ربما سيجارة، وربما. . احفظ أبناءك وعلمهم وحصنهم واستودعهم ربك وربهم ليعودوا لك سالمين مسرورين بعد انتهاء اختباراتهم. . " اتق الله فيما استرعاك " نسأل الله العافية والسلامة للجميع.

كتابك قيمتك

جعل الله تعالى لهذا الكتاب قيمة وأهمية بالغة، وجعل العلمَ محفوظاً بداخله ونحن نتعلم منه، فهو ذو قيمة عالية لدى العلماء وطلبة العلم وباحثي المعرفة والثقافة، وله مكانة عالية في صدور الناس، لذلك نجد البعض لا ينفك الكتاب عن يديه.

۞ فهذه رسالة تربوية موجه لأبنائنا الطلاب:

۞ أخي الطالب:

كتابك المدرسي قيمتك، كتابك المدرسي مستقبلك، كتابك المدرسي ثروتك، كتابك المدرسي تربيتك، كتابك المدرسي دليلٌ على وعيك واهتمامك، فاجعله يدل عليك.

كتابك المدرسي صديقك فحافظ عليه، كل يوم تحمله بين يديك، وفي بيتك تقلبه بيديك وتنهلُ منه العلم، فبكتابك ترتقي سلم المجد والعلم، وتسمو به إلى أعلى مراتب المعرفة والثقافة، وتحصد ثماره التي تنتظرها كل فصلٍ دراسي طوال العام، لتصاحب كتباً أخرى جديدة.

۞ أخي الطالب:

لا شك أن احترام الكتاب المدرسي والمحافظة عليه واجبٌ شرعيٌ وتربويٌ وأخلاقيٌ؛ نظراً لما يحويه من آياتٍ قرآنية وأحاديثَ نبوية شريفة وعلومَ ومعارفَ نافعة لا غنى لك عنها، فهي عصارة لكتب كثيرة.

لذلك نرى – وبكل أسف – ظاهرة انتشرت بين أبنائنا الطلاب وهي فقدان الوعي والاهتمام بهذه الكتب المدرسية ورميها في الشوارع وفي الساحات المدرسية بعد الانتهاء من الاختبارات، وذلك لعدم وجود الرقيب الذاتي في احترامها والمتابع والناصح لهؤلاء الطلاب من قِبل المدرسة وأولياء الأمور والمجتمع ذاته، ونظراً لجهل الطلاب وعدم إدراكهم لأهمية الكتاب.

فلو كانت الأسرة تراعي حقوق الكتاب المدرسي وتعلمه لابنها والاهتمام به وبحامله لرأينا والله جيلاً متعلماً محافظًا على كتابه.

۞ أخي الطالب:

إذا انتهيت من الاستفادة من كتبك المدرسية، ولم تضعها في مكتبة بيتك فاتركها في حاويات المدرسة الخاصة بها لمن يستفيد منها، أو تتلف بطريقة كريمة بعيدة عن الإهانة لما تحويه.

ولا تنسى أن توفر الكتاب المدرسي لك كل فصل دراسي نعمة عظيمة من الله تعالى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فغيرنا لمن يجده، وربما وجده لكن بقيمته أو بقيمة عالية ويشتريه ليتعلم فيه، وأنت تأخذه بالمجان كما كتب عليه «يوزع مجانًا ولا يباع «والدولة – وفقها الله وسددها – تدفع عليه أموالاً طائلة من أجل طباعته بكل ألوانه طباعة فاخرة راقية، من أجل توفيره لك وليسهل الحصول عليه وتدرس فيه وتتعلم منه كل فصلٍ دراسي، فلا بد أن ترد الجميل ويكون الجزاء من جنس العمل «الإحسان بالإحسان» مثلما وفرته لك الدولة بكل يسر وسهولة أن حافظ عليه.

أخي الطالب. . هذه الكتب المدرسية يجب عليك احترامها والمحافظة عليها، ومتى انتهت حاجتك لها ضعها في مكانها المناسب احتراماً له وصيانة لما فيه، لأن محافظتك عليه دليل وعيك.

۞ أخي الطالب:

لماذا هذا الإهمال لكتابك المدرسي، ورميه في الشوارع وفي صناديق النفايات أو بجانبها، وإهانته بشتى الطرق، وهو الذي أوصلك لهذه المرحلة العلمية التي تعيشها من العلم والثقافة والمعرفة التي يفتقدها غيرك. . وقد وقفت على مواقف متعددة منها. . والله المستعان.

۞ أخي الطالب:

والله إنه من المؤسف جداً أن نرى كتب الطلاب بعد الاختبارات مرمية عند بوابات المدارس وقد تشكلت أكوام، وكأن الكتاب عبء عليك طوال الفصل الدراسي، فأتى هذا اليوم الموعود لتلقي به وتلقيه عن كاهلك.

فهذه الظاهرة السلبية السيئة تدل على عدم وعي من رمى هذه الكتب وتخلفه وسوء أخلاقه وسلوكه وطباعه، وأكثر تخلف شبابنا وطلابنا من عدم معرفته للكتاب ولأهميته وقيمته، فتجده لا يفقه ما فيه، جاهلاً بما يحويه ويضمه بين دفّتيه.

فيجب على المدارس ومنسوبيها من المعلمين والمرشدين وكذلك المجتمع بمن فيه من المتعلمين والمثقفين وخطباء المساجد، وكذلك الأسرة لأهميتها أن يعالجوا هذه المشكلة والظاهرة السلبية كلٌ في مجال عمله، بشتى الطرق، ولو بكلمات إرشادية قصيرة أو منشورات أو ملصقات بأفنية المدارس لعلها تجد قلوباً وآذاناً واعية.

ولعل الحل الوحيد الذي يخفف هذه الظاهرة السلبية وضع حاويات وصناديق في فناء المدرسة يضع فيها الطلاب كتبهم بعد الاختبار لعدم استفادتهم منها لاحقـًا، والمدرسة تتلفها بطريقة بعيدة عن الإهانة حسب ما ترى.

❊❊❊

التعصب الرياضي

وقع في يدي كتاب جميل جداً من القطع الكبير والطباعة الملونة الراقية التي تجذب القراء، ومما زاد جماله عنوانه وغلافه (دعني أشجع فريقي) لمؤلفه الشاب مؤنس بن أسعد شجاع، حيث جمّل غلافه باللون الأخضر مثل أرضية الملعب.

فأعجبني فيه أنه تطرق لموضوع التعصب الرياضي الذي تعاني منه الدول والمجتمعات والأسر والأفراد وبين الأقران.

فأحببت أن أدوّن بعض الكلمات حول هذا الموضوع (التعصب الرياضي) الذي ما زال مشكلة خطيرة تزيد يومـًا بعد يوم، وزاد في توترها الإعلام الرياضي بكل طرقه وأنواعه ووسائله ورجاله، فقد أخذت الرياضة حيزاً كبيراً من الإعلام المرئي والمسموع والمقروء، حيث ضخمها ورفع من مكانة اللاعبين وجعلهم نجومـًا ساطعة في سماء الرياضة، حيث أصبح البعض ممن يشجع لا يرى في فريقه عيبـًا ولا في لاعبه المفضل، وأن الإعلام وراء كل هذه المشاكل والمصائب اليومية في الشارع الرياضي.

فالتشجيع حرية فردية؛ لكنها بأخلاق رياضية عالية، وإذا وصلت إلى التعصب المقيت فتركُ الرياضة ومتابعتها أولى وأفضل من أن تخسر صحتك ووقتك وأصدقائك.

لنرى أن الإعلام الرياضي هو الحاصل على المركز الأول في نشر التعصب الرياضي والمساعدة عليه، وكذلك ما نراه من حسابات مجهولة في برامج التواصل

الاجتماعي تنشر التعصب بين الأجيال برسائل مقصودة وغير مقصودة ليكونوا فريسة سهلة لهذا التعصب الرياضي بحسن نيّة وهم لا يعلمون ما وراء التعصب الرياضي إلاّ التنازل عن الأخلاق والقيم الإسلامية والإنسانية والنزول إلى ما دونها.

وما نراه ونشاهده كل يومٍ في مجتمعاتنا من مشاكل بين الشباب بسبب هذه الفرق ومشجعيها، وسرعة انتشارها وسرعة تجاوب الإعلام معها، لنجد المشاكل قد تحصل في البيت الواحد بين اثنين من أفراد الأسرة الواحدة، لأن لكل شخص فريق مخصص يشجعه ويسعى لرفعه والدفاع عنه.

فلو علم المشجع والمتعصب ما وراء الأكمة من مشاكل لترك الرياضة بأكملها ولم يلقِ لها بالاً.

فالرياضة مباحة في الإسلام لتقوية الجسم وحمايته من الأمراض، فأمر بها وحدد أنواع الرياضة المفيدة، والجديرة بالاهتمام والمتابعة، أما ما نراه من بعض الرياضات فالإسلام له نظرته في ذلك، ولسنا بصدد الحديث عنها وإنما عن داء التعصب الرياضي ومشاكله، ليعلم كلُ رياضي متعصب أنما هو يدور في دوامة خطيرة لا يدري ما خلف الأمواج من أعاصير مخيفة.

فقد يتعصب لنادٍ من دولته، أو من خارجها فلا يهمه أكان عربياً أو لا، أكان مسلماً أو كافراً، وعادة ما يكون التعصب مصحوباً بالاستهزاء والإساءة والسخرية والاتهامات الباطلة، والتجريح غير المبرر يقضي على روح الرياضة وجمالياتها التنافسية.

حيث أنه يفضي إلى اختلاق عداوة كاملة وتامة بين الأصدقاء والإخوان وإلى مبارزات تلفزيونية على مستوى كبار الشخصيات الهامة في المجتمع الرياضي،

وعلى مستوى المقالات الصحفية، وقد يتم تصعيدها سياسيـًا على مستوى الدول كما حصل سابقـًا في بعض البلدان العربية.

فالإفراط في حب الفريق المفضل أو اللاعب الفلاني المفضل أمرٌ مقيت تعافه النفوس السوية والقلوب الرضية، وتغليب جانب العاطفة على العقل في التشجيع يفضي إلى أمور لا تحمد عقباها، وما تشارك به وسائل التواصل والوسائل الإعلامية يزيد من حدّة التعصب، ويوقد شرارتها بين الرياضيين من خلال العناوين الكبيرة المستفزة للجمهور الرياضي، والتصاريح الصحفية الإعلامية المتعصبة للأندية يخلقُ فجوة بين الشباب.

فيجب على الإعلام الرياضي ومن يقف خلفه من رجالاته مراعاة هذه الأمور والاتزان في نشر الأخبار وعناوينها لأن غالب فئة الشباب يتابعه، ولنعلم علمـًا يقينـًا أن بعض الصحف والقائمين عليها تتعمدُ ذلك، وقد سمعت من أحد اللاعبين المشهورين في لقاء صحفي معه قال: (أنتم يالإعلام تصنعون المشاكل بين اللاعبين، وبين الجماهير) وبعض الإعلاميين المتعصبين يثير ذلك عبر حسابه، وقد رأينا نماذج كثيرة عبر تويتر، فكيف يكون الإعلام قدوةً رياضيـًا وهو بهذه الطريقة المقيتة.

فالعداوة والتعصب كلاهما لا يأتيان بخير وأضف معهما الانفعالية الزائدة واللجوء إلى الانعزالية والحساسية في الحديث مع الناس حول الرياضة وكأن كل صيحة عليه.

والسب والشتم لكل نادٍ أو فريق أو لاعب مسلم ربما تغلب على فريقه المفضل واللعن في كثير من الأحيان. . وكأن الأجيال لم تعرف غير السب والشتم في مجال

الرياضة، أو الإساءة إلى الأقران بحجة أن فريقه لا يعجبني أو لا يمثلني. . أو أن اللاعب الفلاني لا يعجبني.

ولأن المتعصب لا يرى الواقع على حقيقته، بل يراه على هواه بعين عوراء وما تميل إليه نفسه، ويرى خلاف ما يراه الناس.

ونرى دائمـًا المتعصب يلوي أعناق الحقائق ويزيف الواقع، وبالتالي يحرم نفسه وغيره من الوصول للحقائق، ويذكي النزاعات ويطيل مدة الخلاف بينه وبين أقرانه وخصومه الرياضيين.

وقد يصل التعصب من الأفراد إلى المجتمع، وذلك في شغب الملاعب وتواجه جماهير الفريقين، وقد رأينا كثيراً من ذلك في بعض الدول المسلمة ورأينا الدور الكبير في التعصب الذي تذكيه وتنميه ما تسمى برابطة المشجعين ومن يقف خلفها من المتعصبين الرياضيين الذين لا هم لهم إلاّ الفوز بأي طريقة كانت.

وشاهدنا حوادث مؤسفة في الحقيقة ليست سوى إفرازات لذلك الاحتقان الرياضي بين الشباب الذي غذاه التعصب الرياضي، نظراً لعدم مساهمة غالبية الأندية الرياضية والعمل لتحقيق الهدف الأسمى وهو إعداد المواطن الصالح الذي يخدم دينه ووطنه ومجتمعه، وحيث أن جميع الأندية مكتوب على شعاراتها (نادي رياضي اجتماعي ثقافي) فلم نرَ من الشعار سوى نادي رياضي فقط؛ ويسانده التعصب الرياضي. . فأين هي الأندية الرياضية وإعلامها من ذلك. والله المستعان.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد

ثقافة التخريب

ثقافة سيئة تشبعت بها عقول بعض أبنائنا وشبابنا من المراهقين، حتى أصبحت عقولهم ونفوسهم تهوى التخريب والعبث؛ فيقومون بالتعدي على أموال الغير وعلى الممتلكات العامة سواء في الحدائق أو المدارس أو الشوارع أو المتنزهات فيقومون بتكسير هذه الأشياء وتخريبها التي وضعت لصالحهم وخدمة لهم في جميع شؤون الحياة، وذلك بمرأى من بعضهم البعض دون إنكار مع الضحك والقهقهة وكأن ذلك الفعل القبيح بطولة يستحق عليها الشكر.

نرى لوحات الشوارع الإرشادية يتم التعديل عليها حسب الهوى، مع أن ذلك من تغيير منار الأرض الذي تُوعِد فاعله باللعن في الحديث: «**سأل رجلٌ عليًّا هل كان رسولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يُسِرُّ إليك بشيءٍ دون الناسِ؟ فغَضِبَ عليٌّ حتى احمَرَّ وجهُه، وقال: ما كان يُسِرُّ إليَّ شيئًا دونَ الناسِ، غيرَ أنه حدَّثَني بأربعِ كلماتٍ، وأنا وهو في البيتِ فقال: لعَنَ اللهُ مَن لعنَ والدَه، و لعَنَ اللهُ مَن ذَبَحَ لغيرِ اللهِ، و لعَنَ اللهُ مَن آوى مُحْدِثًا، ولعَنَ اللهُ مَن غيَّرَ منارَ الأرضِ**»[1] كما بين العلماء، لأنه يُتيْه التائه الذي يستعين على معرفة الطريق بهذه اللوحات الإرشادية، وكذلك إنارات الشوارع يتم حذفها بالحجارة ! لماذا؟.

كذلك المدارس التي وضعت من أجل خدمة هذه الأجيال المتعاقبة، وما حوته محاضن التربية والتعليم وفصولها الدراسية من أجهزة كهربائية أو الكترونية أو تعليمية أو لوحات إرشادية وتعليمية يتم الاعتداء عليها من أجل

(١) صحيح النسائي (٤٤٣٤).

إضحاك الآخرين وحتى يكبر في نظر أقرانه، أيعقل مثل هذا أن تتشبع عقولهم بهذه الأفعال وهم في محاضن التربية والتعليم يتعلمون كل خلق فاضل وكل ما يفيدهم في الدنيا والآخرة.

وتشويه المرافق العامة والجدران بالكتابات وما يختلج في عقولهم وأحاسيسهم ينثرونه بأقلامهم على أبواب الحمامات والأماكن القذرة إذا سلمت من تخريبهم فحدث عنها ولا حرج!.

ويقومون بتشويه الأماكن الجميلة، تجد لهم عبارات من الحب والغرام وعبارات تخدش الحياء وكرامة الرجال على جدران المدارس، كتب بعضهم على جدار المقبرة فلم يحترم قدسية المكان، ولم يتفكر فيمن ينامون تحت أرض جداره الذي ينثر عليه أهواءه وتعلقاته ولم يتأمل لحظة في مصيره، فلم تسلم جدران المقابر فضلاً عن غيرها من أيدي العابثين والعاشقين، وسمعت قصة من أحد المعلمين عن قصة طالب بالمرحلة الثانوية كتب على جدار مقبرة دفن بها حبيبه تأسفاً على رحيله بحادث وكلمات فيها تعارض مع قضاء الله وقدره دون مراعاة لحرمة المكان ولا لحرمة الميت.

لماذا كل هذا؟ هل هذا ما تعلمناه من ثقافتنا الإسلامية ومن ديننا الحنيف المطهر، أم هذه ثقافة دخيلة على مجتمعاتنا؟

هل هي وليدة هذا العصر مع نشأة جيل جديد وتقنية عالمية؟ أم أنها من العصر الحجري ولم تفعّل لعدم وجود أبطال لها؟ نسأل الله العافية الدائمة ونسأل الله أن يهدي شبابنا ويصلحهم ويصلح بهم.

فهذه الممتلكات العامة هي التي لا ينفرد بملكيتها شخص أو بعض الاشخاص، فهي عامة لكل المواطنين وملك للجميع ولهم الحق في الاستفادة منها والانتفاع بها، وكما يجب على كل إنسان أن يحافظ على ملكهِ الخاص فمن الواجب عليه أن يحافظ على الممتلكات العامة، فلن يطالبك بها شخص أو شخصين أو ثلاثة وإنما كل مواطن له الحق في الإستفادة.

مع أن ديننا المطهر يحث على الحفاظ عليها وكذلك مناهج التعليم تأمر بذلك، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥]. فذلك من الإفساد في الأرض ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧].

ولقد شبه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الملكية العامة بامتلاك عدد من الناس لسفينة فلو أن شخصاً من هؤلاء المالكين أراد أن يفسد أحد أجزائها فإن عقابه واجب؛ لأن إفساد جزءٌ من السفينة هو إفساد للسفينة كلها وفي هذا هلاك للجميع، وعدم المحافظة على الممتلكات العامة دليل على سوء الضمير ودليل على عدم احترام القانون ودليل على عدم الإيمان بأوامر الله تعالى، فلا بد من التعاون على الحفاظ عليها وتنبيه من تسول له نفسه العبث بها، والأخذ على أيديهم ومعاقبة كل مخرّب لممتلكاتنا العامة «**تدرونَ مَنِ المسلمُ؟ قالوا: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ قالَ: مَن سلِمَ المُسلِمونَ من لِسَانِهِ ويدِهِ قالَ: تدرونَ مَن المؤمنُ ؟ قالوا: اللهُ يعنِي ورسولُهُ أعلَمُ قال: مَن أَمِنَهُ المؤمنونَ علَى أنفسِهِم وأموالِهِم والمُهَاجِرُ مَن هَجَر السوءَ فاجتَنَبَهُ**»[1] فالحفاظ عليها واجب ديني ووطني يعاقب عليه الدين والنظام والقانون.

(١) مسند أحمد (١١/ ١٩٠)، خلاصة حكم المحدث : إسناده صحيح.

زهرة مجالسنا

في خضم هذه التقنية التي غزت بيوتنا بكل قوة، أضاعت أوقاتنا الثمينة، وقطعت علاقاتنا، وقللت زياراتنا، وأصبحت أيامنا كاليوم الواحد وعلى روتين واحد، فلا وقت ثمين نستفيد منه، ولا كتابٌ جديدٌ نقرأه، ولا صديق حميم نقابله، ولا مال لأبنائنا نجمعه، ضاعت أموالنا لمعرفة كل جديد من الأجهزة، وضاعت أوقاتنا بهذه البرامج الاتصالية، وضاعت أعمارنا وذهبت بسبب غفلتنا، فلن نفيق من سباتنا إلاّ بفقدها.

فمن عاداتنا الاسلامية وموروثنا الشعبي احترام الكبير وتقديره، ومعرفة مكانته في الدين، وفي المجالس، لذلك كنا نرى الرجل الكبير في السن يتصدر المجلس ويتحدث ويحكي تجاربه في هذه الحياة لنستفيد منها، أو يقص لنا قصة زواجه وبداية حياته الزوجية، أو يسرد لنا نسبه ونسب عائلته أو قبيلته أو يسامرنا ببعض مواقف من حياته وسفراته للحج ولطلب لقمة العيش، والكل منصت ومتشوفٌ ويريد المزيد منه، ولا يريد أحد له السكوت، أو ينثر لنا من الأمثال والحكم الدارجة، أو ما حفظته ذاكرته القوية من المساجلات الشعرية ومن قصائد الشعراء الكبار، وربما مسح دمعته لمرور شريط الذكريات مع أحد أحبابه، وربما خنقته العَبرة لموقف كاد أن يهد من قوته وصلابته وصبره، نفرح بسماع قصصهم ومغامراتهم في الحياة ونتشوق لها، منا من يحفظها والآخر يدونها ويرويها، يحادثنا والابتسامة تعلو محياه، والرضا والسرور ديدنه في كل حال، والتوكل على خالقه منهج حياته وعمله، رغم الظروف القاسية التي مرّ بها،

ولا يشتكي ولا يسخط من أقدار الله تعالى، لنجد أكثرهم مصادر موثوقة لكثير من الأحداث القديمة والجديدة، وأكثر ما قرأناه وما سُطرَ في الكتب عن تاريخ فيفاء وأحداثها وحروبها كله من محفوظهم وما خزنته عقولهم، فهم يحفظون كل ما يعايشونه، ذاكرة أحدهم قوية يثبت بها كل ما يحفظه، ليس لديهم ما يشغلهم من التقنية ومشغلات هذا العصر.

أما الآن فنلاحظ. . يا للأسف، وليتنا لم نلاحظ ذلك، فقد أصبحنا في زمن يجلس الشايب وكبير السن منعزلاً في ناحية من المجلس، وإن جلس في صدر المجلس لا يلقى له بالاً إلاّ ما رحم ربي، أين احترام الكبير؟

أيننا من قول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ليسَ منَّا منْ لمْ يرحمْ صغيرَنَا، و لمْ يعرفْ حقَّ كبيرِنا، و ليسَ منَّا منْ غشَّنَا، و لا يكونُ المؤمنُ مؤمنًا حتى يحبَّ للمؤمنينَ ما يحبُّ لنفسِهِ**»[1]، حتى وإن احتاج مساعدة لم يبادر إليه إلّا أبناؤه أو أحفاده إن وجدوا، أو فاعل خير على استحياء من الناس، ونادراً نرى من يجالسهم ويستمع لهم، أصبحوا في عزلة، وأصبحوا عند بعض الناس وجودهم كعدمهم – والله المستعان – كأنهم أصبحوا عالة على مجتمعنا، إنا لله وإنا إليه راجعون، فهم والله زهرة مجالسنا وريحانة بيوتنا ورحمة من ربنا، هم آباؤنا وسبب وجودنا بعد الله، هم أجدادنا ونسبنا وعزنا وفخرنا، هم قدوتنا في الحياة ونرجع إليهم بعد الله في حلّ المعضلات لخبرتهم في الحياة، فلا تسمع منهم إلاّ ما يفيد ولا يتكلمون إلاّ وقد وزنوا كلامهم، فهم أفضل ممن كانت الغيبة فاكهة مجلسه وتصدره له يتكلم بكل شيء ويوزع حسناته يميناً وشمالاً، أو مشغول

(١) الجامع الصغير، ٧٦٧٦، خلاصة حكم المحدث : حسن.

بجهازه وبرامج تواصله، بين غيبة وكذبٍ وضحك وأخبار لا تسمن ولا تغني من جوع ولا تفيد قراءتها فضلاً عن نشرها، ونشر إشاعات لا ترضي ربه ولا ترضي رسوله، وأغضى عمن حوله في المجلس، فهؤلاء الكبار في السن وجب علينا خدمتهم، ومعرفة قدرهم، وتقديرهم، فهم السبب في نزول رحمة الله علينا، كما جاء في الحديث لولا الشيوخ الركع لم تمطروا، فقد ضعفت قوتهم، وازدادت حاجتهم للمساعدة، وقلت مكانتهم عند كثير من الناس، إمّا يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما، وهم بأشد الحاجة إلى العون، نسأل الله العفو والمغفرة، وأن يبارك لنا فيهم ويرفع قدرهم ويمدهم بعونه وحفظه، ويهدينا إلى سبل الهدى والسلام.

***

الترتيب في الحياة

قال الإمام أبو عبيدة: «مَن شغل نفسَه بغير المهمِّ أضرَّ بالأهمِّ».

لما يتأمل الإنسان في هذا الكون العظيم ويتمعن فيه يجد الترتيب والانتظام أساسه الذي يجذبُ الأنظار، وذلك بانتظام دقيق لا يختل أبداً ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣٣] وتأمل في تعاقب الليل والنهار ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] هذه الحياة تسيرُ وأمورها بانتظام وترتيبٍ دقيق مدهش، فسبحان من أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى، وتأمل تعاقب الأيام في فصولها الأربعة، بل سوف تعجبُ من إبداع هذا الكون وانتظامه بكل ما فيه. . فسبحان الله مبدعه.

لذلك جاء الإسلام بأمور وتشريعات مرتبة ترتبُ حياة المسلم بداية من الصلوات الخمس التي تجعل يومك مرتبـًا بانتظام دقيق، وتجعل حياتك لها معنى وفائدة تسيرُ بك نحو هدفك الذي ترمقه وتسير نحوه، وقد عُنيَ الإسلام بالترتيب والكمال وأمر به وحثّ عليه في كثير من العبادات واشترطه في أعمال الوضوء والصلاة والحج وغيرها من العبادات التي جاءت الشريعة بأوقاتها المرتبة، ونزل القرآن الكريم مرتبـًا حسب الوقائع والأحداث دون فوضى.

فلما تسير حياتنا على الترتيب تكون منظمة غير متخبطة ومرتبة ومتسلسلة والناظر في حياة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرى الترتيب يسود حياته كلها، أفلا نقتدي به في جميع أمور الحياة المترامية المشاغل والمتاعب، فمن لا يعيش حياة الترتيب والجدية في عمله تجده يتخبط بين العشوائية والفوضى، فلا يكاد ينتهي من عمل

إلاّ انتقل لآخر من أموره الهامة، ولا ينجزُ شيئاً من أعماله اليومية، ليجد أكثرها مؤجلة أياماً وأسابيع، فراحتْ أوقاته هباءً منثوراً.

فيجب على المسلم دائماً الحرص على أن يكون الترتيب أساس حياته ومعاشه ومواعيده وانجازاته، لأنه بذلك سيخرج بفائدة في ترتيب المواعيد بعيداً عن الفوضى المذمومة شرعاً والمنبوذة عرفاً.

فكان الانتظام والترتيب مشترك بين الأمم حاضرها وماضيها ومستقبلها في كل شؤون حياتهم. . لكننا نتألم عندما نرى النظام والترتيب يسود ديار الغرب والكفر بخلاف ديارنا نحن المسلمون والعرب، وذلك بسبب التفريط منا وعدم اهتمامنا بذلك جدياً.

فمن أسباب الفوضى عدم تقدير الوقت وعدم الاكتراث بقيمته وأهميته، والتواكل والتسويف وتأخير المواعيد، وكذلك الخمول والكسل واليأس في هذه الحياة الجميلة، التي تكون مقتلة للإبداع والإنجاز.

واعلم أن التخلف عن المواعيد يرْبكُ استقرار حياتك، ولا بد من تصحيح الفوضى المنتشرة بين أغلب الناس في كل مكان بالحفاظ على الترتيب والتزام المواعيد، فلا تستقيم حياة الفرد إلاّ بالترتيب، لأن الفوضى لها أضرارها الكثيرة على الفرد والمجتمع، وتراكم الأشغال والأعمال في الوقت الواحد حيث يركز المرء على أعماله الصغيرة دون الكبيرة والأسهل دون فائدة، ويضع له مواعيد في الزيارات تناسبه وتناسب غيره لا تشغله ولا تعطل غيره عن أمور حياتهم.

والفوضوية في صلة الرحم وعدم اختيار أوقاتها المناسبة تكون السبب الرئيسي

في قطيعة الرحم، وترتيب أوقاتها فلا تضارب في مواعيدك مع اهتماماتك ورغباتك وأساسياتك حتى لا تخلف وعداً لأنها مذمة ومنقصةٌ فيك وفي ترتيب حياتك.

وعدم الفوضوية في البيت تسوده الألفة والمحبة والهناء، ويعيشُ أهله بأحسن حال وسعادة، بخلاف من يعيش الفوضى تجده بأتعس حالٍ فلا طعم لديه للحياة الجميلة في بيته.

والمكتبة المنزلية أو العامة مهم جداً ترتيبها حتى يجد القارئ كل ما أراد الحصول عليه من الكتب بسهولة جداً دون عناءٍ يذكر ويختصر عليك الوقت في طلب الفائدة منه. . لنسمع أحد المهتمين بالقراءة يقول عن نفسه: (كنت لا أحرص على ترتيب مكتبتي ولا أفكر في ذلك إطلاقًا، وأعيش الفوضوية في مكتبتي وذلك يرتاح له بالي، فكنت أحتاج كتابًا مهمًا أرجع إليه مرة أو مرتين كل شهر أو ثلاثة شهور لأهميته، وبسبب عدم الترتيب لا أجده فاضطر إلى شراء آخر، وهو كذلك حتى عزم بعد سنوات على ترتيب مكتبته، فوجد بها ثلاث نسخ من هذا الكتاب وكل ذلك بسبب الفوضى في مكتبته».

قال العلامة الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا سعي الشيطان في إضاعة وقت المسلم: (يأمُره بالأعمال المفضولة من الطاعات، فيُحسِّنها في نظره، ويُريه ما فيها من الفضل ليشغله عما هو أفضل، ويشغله بما هو محبوب عند الله عمَّا هو أحبُّ إليه).

۞ خاتمة:

* اجعل لك مذكرة صغيرة تدون فيها مواعيدك.

* اجعل لك مواعيد للقراءة والكتابة، ومواعيد لصلة الرحم، وتحديد مواعيد النوم المبكر، وترتيب أعمال البيت، وترتيب الأعمال الخاصة بالعمل، والأعمال الخارجية والرحلات والزيارات، ومواعيد استخدام الأجهزة في البيت وغيرها.
* الترتيب يجعل في وقتك البركة، والعزيمة على العمل بكل جدٍ ونشاط، ويساعدك على إتمام مشاغلك وانجاز مواعيدك، فلنبدأ يومنا مرتبًا بصلاة الفجر ثم الأذكار ثم الأعمال. . وهكذا إلى وقت النوم المبكر ليلاً.
* الحرص والاستفادة من شيء لتسهيل الترتيب في أمور الحياة، واحذر التسويف والتأجيل للأمور الهامة.
* ثمرة الترتيب المحافظة على الوقت والاستفادة منه في الانجاز.

***

وانقطع الصوت الشجي

منذ سنوات طويلة ونحن نسمع ذلك الصوت الشجي الذي تطرب له الآذان صوت يصدح في آفاق نيد الضالع وما حولها بكلمة التوحيد (أشهد ألاّ إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) ومعلنـًا بدخول وقت الصلاة (حي على الصلاة) أن هلمّوا يا عباد الله إلى التي هي راحة لكم وسكينة لكم من تعب الدنيا وشقاءها.

فمنذ أن كنتُ صغيراً وأنا أسمع هذا الصوت وهو أول نداءٍ سمعته أذناي للصلاة ومازال يتردد صداه داخل مسمعي، وكان الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يفطر في رمضان إلاّ على سماع هذا الصوت، لأنه يعرف دقته في مواعيد الأذان، لكنه بعد سنوات طويلة انقطع الصوت الشجي، انقطع صوت الأذان بعد أن نقش اسمه وصداه في أذان كثير من الأجيال، لنفقد صاحب الصوت الذي كان أبـًا للجميع وقدوةً لهم، إذ هو أولهم دخولاً للمسجد وآخرهم خروجـًا منه، فهو والله توفيق من الله له. . فهنيئـًا له في عباده الصالحين، نحسبه كذلك والله حسيبه، ولا نزكي على الله تعالى أحداً.

فقد رحل المؤذن وغادر الحياة وانتقل إلى جوار ربه لينقطع ذلك الصوت الذي كان يبهجنا ويشجينا سماعه ويدعونا للصلاة خلف إمام مسجده.

رحل مؤذن مسجد نيد الضالع الشيخ سلمان بن يحيى العمري تغمده الله برحمته وتقبله في الصالحين، رحلت ولم يرحل صدى صوتك من أسماعنا، أبشر بخير كثير تجده أمامك فقد بشر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المؤذنين بخير بعظيم يوم القيامة.

بشرهم بشهادة من سمع صوته في الدنيا، وبأنهم يُعرفون بين الناس لطول أعناقهم.

انقطع صوتك الشجي معلناً خروجه من الدنيا ورحيله إلى الآخرة، وانقطعت فرحة المرضى بالمستشفى بزيارتك لهم كل جمعة، وانقطعت صلة الرحم، لكن أجرها عند الله لم ينقطع، فكم صلى بأذانك مصلٍ، وكم أفطر بأذانك صائم، وكم أفرحت مريضاً وواسيته بزيارة خفيفة عصر جمعةٍ، وكم واسيت من محزون.

رحمك الله يا مؤذنٌ أشجانا سماع صوته، رحمك الله يا من فقدنا صوت آذانه، فلن ننسى زيارتك للوالد رحمة الله عليكما في عصر جمعة ومواساتك له في مرض موته، فكانت كلماتك برداً وسلاماً على آلامه ومعاناته من مرضه، وانقطع صوت دوي القرآن بالمسجد بين المغرب والعشاء.

سيفتقدك مصلاك، سيفتقدك مصحفك، فقد آذانك من قبل ذلك مكبر الصوت، سيفتقدك مسجدك، فقدك أهلك وأبناؤك وأقرباؤك ومحبوك فرحمك الله وغفر لك وجعل جنة الفردوس مثواك، وتقبلك في عباده الصالحين، وألهم أهلك الصبر والسلوان وجبر الله كسر قلوبهم وقلوبنا في فراقك، ونعزي أنفسنا وذويك وجميع قبيلة العمريين وأهل فيفاء كافة في وفاتك وفراقك.

إنا لله وإنا إليه راجعون.

❊❊❊

﴿ أخيراً وجدت. . (السمط الحاوي) ﴾

أخبر الله سبحانه عن رفعه درجات أهل العلم والإيمان خاصة وقد ذكر في كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

۞ وفي السنة النبوية:

عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من سلك طريقًا يطلبُ فيه علمًا ، سلك اللهُ به طريقًا من طرُقِ الجنَّةِ ، وإنَّ الملائكةَ لَتضعُ أجنحتَها لطالبِ العلمِ رضًا بما يصنع ، وإنَّ العالمَ لَيستغفرُ له مَن في السمواتِ، ومن في الأرضِ ، والحيتانُ في جوفِ الماءِ، وإنّ فضلَ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ ، وإنَّ الأنبياءَ، لم يُوَرِّثوا دينارًا، ولا درهمًا، إنما وَرّثوا العلمَ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ**»[(١)].

فالعلماء وفقهم الله جعلوا مقولة الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى نصب أعينهم: (الناسُ محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب يُحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين، والعلمُ يُحتاج إليه بعدد الأنفاس).

فلقد قرأت في بعض الكتب[(٢)] والمواقع عن انتشار التعليم في منطقة جازان

---

(١) صحيح الجامع (٦٢٩٧).

(٢) المخلاف السليماني - التعليم في جنوب المملكة .

وما جاورها ومن كان السبب بعد الله تعالى في نشر العلم من المشايخ والدعاة الذين سخروا أوقاتهم لنشر الدين، وأفنوا أعمارهم لخدمة الإسلام ولمحاربة البدع المنتشرة والفساد في المجتمعات.

وسمعت من الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له ومن كبار السن في المجالس يتحدثون عن أيام شبابهم وأيام دراستهم وطلبهم للعلم، وكانوا يدرسون ويتعلمون العلوم الدينية، وأساسيات الدين والصلاة والزكاة وغيرها، وقد سمعتهم يذكرون معلمهم ويترحمون عليه، ويثنون عليه ويذكرونه بكل خير، ويعرفون حقه عليهم وقدره في المجتمع.

وكان ذلك المعلم الذي حظي بثنائهم ومدحهم له، وحظوا بطلب العلم على يدي ذلك الشيخ الداعية الذي اتجه صوب الجنوب من القصيم ليعلم الناس وينشر فيهم العلم الشرعي ويُحيي بينهم دين الله الذي لا حياة للإنسان إلاّ به ولا يقبل الله غيره من الأديان كما قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

قال عنه الملك سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا عندنا أي شك في بذلكم الجهد في الدعوة والإرشاد، وتعليم الحق، ونشر العلم في تلك الجهات التي طالما اعتكرت فيها ظلمات الجهل والضلال).

وقال عنه الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ - مفتي الديار السعودية -: (ومعلوم لدينا أن هدفك ومرامك هو الخير، وحب الخير، وحب انتشار الدعوة، ورواج الإصلاح للمسلمين جميعًا).

وقال عنه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بذل جهوداً كبيرة في الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام الكثير من المدارس، وحلقات العلم، ونفع الله بجهوده السكان، وانتشر به العلم، وتخرّج على يديه الكثير من طلبة العلم، وزال بالله سبحانه ثم بجهوده، وجهود طلابه كثيراً من الأمور المخالفة للإسلام في العقيدة، والعبادات، والمعاملات، جزاه الله خيراً وضاعف مثوبته وأصلح ذريته).

وقال عنه الشيخ عبد الرحمن السميط رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فوجئت بالشيخ عبد الله القرعاوي الذي ولد وتربى في نجد، ونذر نفسه للدعوة في جنوب المملكة العربية السعودية، وأعجبني طريق دعوته الذي هو طريق دعوة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، طريق الحكمة، والموعظة الحسنة، أعادت سيرة الشيخ الثقة بي، وأكملت المسيرة، مسترشداً بسيرة المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه الكرام، وبالدعاة الذين سارو على هذا الطريق رحم الله الشيخ وأمثاله، وجزاهم عن الأمة كل خير).

وكنت أتشوق لمعرفة الكثير والكثير عن هذا الرجل العظيم؛ الذي أفنى عمره كله في تعليم الناس شرع الله تعالى، وأخرج الناس بفضل الله من دياجير الظلمات إلى نور الله بارئ النسمات، وبيّن لهم الطريق المستقيم، وحارب البدع والمنكرات، وتصدى لهذه الخزعبلات والخرافات بالأدلة والبراهين.

وعلمت فيما بعد أن القاضي الشيخ علي بن قاسم الفيفي حفظه الله ومتعه بالصحة والعافية ووفقه لكل خير قد ألف كتاباً عن هذا المعلم الداعية الذي كان من طلابه البارزين، وله باع طويل في طلب العلم.

فألف كتابه المشهور: (السمط الحاوي لأسلوب الداعية الشيخ عبدالله القرعاوي في نشر التعليم بجنوب المملكة) ويقع في مجلد من القطع الصغير، صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٤١١هـ، وطبع بأوراق ليست من النوع الراقي لكنها تحمل بطياتها عِلْماً راقياً، لسيرة عَلَمَاً راقياً، بقلم طالب ترقى في طلب العلم.

وأفنى وقته في ملازمة معلمه، الذي ترقى في مضمار العلم والدعوة إلى الله في جنوب البلاد، والدعوة في جبال فيفاء، وتأسيس أول مدرسة بها لنشر العلم منها، واقتداؤه برسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في بناء المسجد كلما دخل بلداً ليكون ملتقى الجميع وتلقي العلم وتعليم الناس أمور دينهم، وتأسيس أول مكتبة بصامطة تشتمل على أمهات الكتب والمراجع في جميع الفنون، وانتقى من المعلمين أفضلهم، وطلب معونة الدولة للقضاء على الجهل المنتشر جنوب البلاد، بسبب صعوبة الظروف ورواسب الجهل والفرقة والعصبية القبلية والنعرات الطائفية، وما أورده من مكاتبات بهذا الصدد، وقد جعل المؤلف كتابه من شقين:

الأول ينتهي في ص٩٥ عن الشيخ القرعاوي، والثاني عن الشيخ: حافظ الحكمي أنجب تلاميذ الشيخ ينتهي ص ١٢٦، وفي ص ١٢٧ حتى نهايته ص ١٣٩ صور للرسائل المتعلقة بالتعليم في فيفاء للشيخين: عبد الله القرعاوي، وحافظ الحكمي رحمهما الله، وانتهى من تألفيه عام ١٤٠٠هـ وأنا لم أولد بعد.

بحثت عن هذا الكتاب كثيراً وتكراراً، وسألت عنه كثيراً، وكنت أتردد على المكتبات بمكة المكرمة أيام الدراسة الجامعية هناك وأسأل عنه لربما وضع بإحدى المكتبات حيث يسكن المؤلف بالعاصمة المقدسة مكة المكرمة، واستمر بحثي عنه ما يقارب العشر سنوات، فلم أجده وسعيت في الحصول عليه

بشتى الوسائل وخاب مسعاي حتى يئست من الحصول عليه، وتمنيت لو أجده وأدفع فيه مبلغـًا طائلاً في سبيل الحصول عليه.

ورب صدفة خيرٌ من ألف ميعاد، بالصدفة تعرفت على شخص من عائلة القاضي علي بن قاسم الفيفي وفقه الله وسألته عن هذا الكتاب[١]، فوعدني بنسخة منه، فبحث عن نسخة وأعطاني إياها موفقـًا مشكوراً مأجوراً، وفرحت كثيراً وكأنني حصلت على كنز مدفون وترقبت الكتاب واستبطأت وصوله، فلما وصل أخيراً استقبلته بشغف وعاتبته لتأخره وأنا في انتظاره!، وقرأته وأعجبني كثيراً.

وفق الله القاضي الشيخ علي بن قاسم الفيفي على ما خطت يداه في هذا (السمط الحاوي) وجعله في موازين حسناته يوم يلقاه، ورحم الله الشيخ عبدالله القرعاوي وأجزل له المثوبة جزاءَ نشر التعليم في فيفاء وما جاورها وفتح المدارس وتعليم الأجيال.

وها هو الكتاب بين يديّ ولله الحمد والشكر أولاً وآخراً ..

❊❊❊

(١) شكر خاص للأستاذ: محمد بن سليمان قاسم آل طارش الفيفي، الذي كان السبب بعد الله في حصولي على هذا الكتاب الثمين.

أبو سامر وموسوعته التاريخية

التاريخ بحر عظيم لا ساحل له، ولن يغوص في أعماقه ومحيطاته إلاّ القليل النادر، ولا يشبع الصياد من درره وجواهره، ولكل فنٍ من الفنون أصحابه ورجاله، ولا ريب أن علم التاريخ بدأ مع بداية وجود المجتمع الإنساني نفسه منذ بدأ الإنسان يسجِّل مظاهر حياته بشكل أو بآخر، مبتكراً بذلك مجالاً جديدًا لمعرفة الإنسان بذاته، ولكل زمان علماؤه ومؤرخوه ومثقفوه ولكل حدث توثيق ولكل زمان كتّابه ومبدعوه ولكل عصر من العصور تصانيفه وموسوعاته ومخطوطاته التاريخية ومؤلفاته العظيمة التي بها يحفظ العلم ويصان، وبها يعرف ماضي الأمم وتاريخ الأجيال، وبها يُتعلم ويورث تاريخ الأجداد، وبها يستفاد من تجارب الماضين، ولن يتعلم القارئ ما لم يطلع على التاريخ وخوافيه، ويستفيد من قصصه وماضيه، وعبره على مرّ عصوره وقرونه، فمن لم يقرأ التاريخ يعتبر قد فاته نوع مهم من أنواع العلوم، لأنه لا يعرف شيئًا من أخبار القرون الماضية.

إقـرأ التاريـخ إذ فيـه العبـر ظل قومٌ ليس يـدرون الخبر

يقول ابن خلدون: «فإن فنَّ التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال، وتشدُّ إليه الركائب والرحال، وتَسْمُو إلى معرفته السُّوقَة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، وتتساوى في فهمه العلماء والجُهَّال؛ إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبارٍ عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأُوَل، تنمو فيها الأقوال».

والكل يعلم أن هناك أناس فطاحلة سخرهم الله تعالى لحفظ التاريخ وقد اهتموا به وبتدوينه ولهم باع طويل ونفس منقطع النظير في التنقيب عن تاريخ

القبائل والأنساب، (فقد كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عالماً بقبائل العرب وأنسابها؛ وأقره عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ونعلم أن هذا التاريخ ليس له نهاية، وقد دون فيه علماؤه ومؤرخوه أمثال: ابن اسحاق وابن هشام وابن حزم والخطيب البغدادي وابن كثير والذهبي والمسعودي والطبري وغيرهم الكثير من علماء التاريخ وفطاحلته وموسوعاته التاريخية العظام رحمة الله عليهم.

وفيفاء عروس الجنوب وجارة القمر ومعانقة السحاب لها تاريخ مجيد منذ سنوات موغلة في القدم، عرفه من عرفه وجهله من جهله؛ ولها تاريخ يضرب في عمق التاريخ ونحن نفخر به، ونتعلمه ونعلمه للأجيال ليعرفوا قدر وطنهم وحقوقه وحسبهم ونسبهم وقبائلهم وأصولها وفروعها.

فلنحمد الله تعالى ونفتخر كل الفخر أن سخّر الله تعالى عبداً من عباده المخلصين يحفظ لجبال فيفاء تاريخها للأبناء وللأجيال وللأمم القادمة، كرّس جلّ وقته من أجل تاريخ فيفاء وتراثها العريض، حيث قضى عقدين من عمره في موسوعته العظيمة الموسومة (الموسوعة الميساء لجارة القمر فيفاء) فجعلها في جزئين عظيمين ما يقارب (١٢٩٥صفحة) ورأت النور في حلة جديدة قشيبة في طبعتها الثالثة، فهذا والله ليس بالسهل أن يبقى عشرون عاماً يكتب التاريخ وينقب عن الأنساب والقبائل ويوثق من المخطوطات التاريخية القديمة والمراجع المهمة والنادرة ذات الصلة، ويسافر من بلد لبلد ويتصل ليسأل، ويقرأ ويكتب ويراجع المعلومات تصحيحاً وتدقيقاً، ويلتقط بعض الصور التي زين بها موسوعته بعدسته الخاصة، واستفادته من أهل الخبرة ممن قدم له المساعدة والإهداءات من مراجع ومخطوطات نادرة، حتى أتى على العشرين عاماً ليخرج لنا هذه الموسوعة القيمة على طبق من ذهب مطبوعة طباعة فاخرة.

ويخسر الكثير من ماله ووقته وصحته لخدمة المجتمع، فمنا من أتته هدية ومنا من دفع ثمنها الذي لا يساوي تعب مشواراً واحداً (٢٠٠ ريال) فقط، وهي والله تساوي أكثر من ذلك، وعلى الرغم من أنه قد خسر من أجل إخراجها الكثير والكثير، وكما أخبرني أنه لا يريد من ورائها جمع المال، وإنما كان همه حفظ التاريخ للأجيال ولتعم الفائدة للجميع، وإلاّ كان باستطاعته بيعها بأغلى الأثمان ليستفيد ربحـًا ومكسبـًا، ولكن مكسبه منها رد الجميل لتلك الجبال التي ترعرع فيها آباؤه وأجداده، وإن دلّ على شيء فإنه يدل على حبه لهذه الجبال رغم بعده عنها وقلة سفره إليها إلاّ للضرورة.

حيث نوه في بدايتها بقوله (إن جميع ما ذكر في هذه الموسوعة من نسب وتاريخ وما إلى ذلك من معلومات جمة، هو توفيق من الله عزوجل ثم بحثي واجتهادي لمدة تربو عن عشرين عامـًا إلى أن وصلت إلى ما سوف تقرأونه في كتابي هذا الموسوم بالموسوعة الميساء لجارة القمر فيفاء، فإن وفقت في ذلك، فإنما بنور من الله وفضل ولله الحمد، وإن سهوت أو قصرت أو أخطأت في معلومة ما، فإنني اتحمل مسئوليتها أمام القرّاء جميعـًا).

فتعتبر هذه (الموسوعة الميساء) أول موسوعة تاريخية عن جبال فيفاء، أفنى عمره ووقته الثمين لخدمة وطنه ومجتمعه الفيفي وما جاورهم من قبائل، ولحفظ التراث للأجيال القادمة، وقد سهل بفضل الله الطريق لكل باحث في تاريخها وعلومها وأخبارها وشتى المجالات التي تستدعي الكتابة عنها، فقد أتى على تاريخ فيفاء قديمـًا وحديثـًا بوثائق معتمدة ومخطوطات نادرة، وعن القبائل وأصولها وتاريخها وعصور الأجداد الماضية، ولن يستغني عن هذه الموسوعة

أي باحث وقارئ مهما بلغ من العلم، فهي تعتبر بحق مرجعاً تاريخياً ثميناً لكل باحث وقارئ يهتم بتاريخ فيفاء؛ وأنا منهم!.

ولن أتحدث عن تفاصيلها أو موضوعاتها لأنني لستُ أهلاً لذلك العلم والجهد المبذول، فيكفينا أننا تلامذة له.

ولا أخفيكم أنني مكثت أقرأ في هذه الموسوعة التاريخية ما يقارب ستة شهور؛ ولم أزل أرجع إليها بين الفينة والأخرى، موسوعة بهذا القدر حريٌّ بنا أن نعتز بها ونفرح ونوليها حقها وقدرها وبمؤلفها.

فهنيئاً لك أبا سامر هذا الجهد والاجتهاد، هنيئاً لك أبا سامر دخولك التاريخ من أوسع أبوابه، وهنيئاً لك الذكر الحسن والثناء الجميل بإذن الله ما بقيت جبال فيفاء ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء: ٨٤]، هنيئاً لك هذا العلم الذي خلفته للأجيال (أو علماً ورثه)، والله إننا نغبطك على ما قدمت وما خلّفتَ من ثراث عظيم، ونغبطك على سعة بالك ونظرتك للمستقبل بهذه النظرة الثاقبة وتطلعاتك له، عشرون عاماً ليست بالعدد القليل واليسير رغم المشاغل.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (من لم يجلس في الصغر حيث يكره، لم يجلس في الكبر حيث يحب).

هــذا الكتـاب ذكـرتَ فيـه عجائبـاً
تغنـي النديم عـن المدامـة والطربْ
يهتــز ســامعها لطيــب حديثهــا
إلاّ حســوداً ليس يُعجبـه العجبْ

فالسؤال الذي يتبادر إلى ذهني وإلى ذهن كل منصف لهذه الموسوعة وصاحبها هو:

هل يُعقل أن ننكر هذا الجميل أو نتجاهله، وهل يصدق عاقل أن بعضاً من أبناء فيفاء ممن ليسوا من المتخصصين في هذا المجال أو ممن لم يقدموا لفيفا شيئاً ولو شبيهاً بهذا العمل الجبار؛ أو أقلّ منه، أن يعترضوا عليه فيما يخص جزئية منها بحجة أنها غير صحيحة؟ ومع ذلك ليس لديهم معلومات تفند اعتراضهم ذلك ؟

هل تنسى هذه الخدمة الجليلة المقدمة لنا وللأجيال القادمة على طبق من ذهب؟

هل يعقل أن يحاول بعض من أولئك الذين ألمحت إليهم آنفاً أن ينتقصون من مثل هذا الرجل الباحث الفاضل الثقة فضلاً عن كونه باحثاً تاريخياً مشتهر بين الناس ومعروف لدى الكثير بصدقه وأمانته وإخلاصه؟ ويقدحون في صدقه وأمانته بحجة أو بأخرى، وإنما ليردوا اسقاطه من أعين الناس.

وفقنا الله وإياه لكل خير. . وجعلنا من السعداء في الدارين.

❋❋❋

﴿ لا تنسَ (إن شاء الله) ﴾

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣].

كَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْكُفَّارَ سَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الرُّوحِ، وَعن أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وعن ذِي الْقَرْنَيْنِ، فَقَالَ لَهُمْ: سَأُخْبِرُكُمْ غَدًا، وَلَمْ يَقُلْ (إِنْ شَاءَ اللهُ)، فَعَاتَبَهُ رَبُّهُ بِعَدَمِ تَفْوِيضِ الأَمْرِ إِلَيْهِ، وَعَدَمِ تَعْلِيقِهِ بِمَشِيئَتِهِ جَلَّ وَعَلَا فَتَأَخَّرَ عَنْهُ الْوَحْيُ ، ثُمَّ عَلَّمَهُ اللهُ فِي الآيَةِ الأَدَبَ مَعَهُ، فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ثُمَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ يَعْنِي إِنْ قُلْتَ سَأَفْعَلُ كَذَا غَدًا، ثُمَّ نَسِيتَ أَنْ تَقُولَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ تَذَكَّرْتَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَاذْكُرْ رَبَّكَ، أَيْ قُلْ: (إِنْ شَاءَ اللهُ)، أَيْ لِتَتَدَارَكَ بِذَلِكَ الأَدَبَ مَعَ اللهِ الَّذِي فَاتَكَ عِنْدَ وَقْتِهِ، بِسَبَبِ النِّسْيَانِ، وَتَخْرُجَ مِنْ عُهْدَةِ النَّهْيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[1].

وكما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**قال سليمانُ بنُ داودَ: لأَطوفنَّ الليلةَ على تسعينَ امرأةً. كلُّها تأتي بفارسٍ يقاتلُ في سبيلِ اللهِ. فقال له صاحبُه: قُلْ: إن شاء اللهُ. فلم يَقُلْ: إن شاءَ اللهُ. فطاف عليهنَّ جميعًا. فلم تَحمِلْ منهنَّ إلا امرأةٌ واحدةٌ. فجاءت بشِقِّ رجُلٍ. وايمُ الذي نفس محمدٍ بيدِه! لو قال : إن شاء اللهُ، لجاهدوا في سبيلِ اللهِ فُرسانًا أجمعون.**

(١) أضواء البيان: الشنقيطي (٧/ ٢٦٦).

وفي روايةٍ: مثلُه. غير أنه قال: كلها تحملُ غلامًا يجاهد في سبيلِ اللهِ»[١].

وقد ورد الاستثناء كثيراً عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث عتبان بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند ما قال له : ووَدِدْتُ يا رسولَ اللهِ، أنك تأتيني فتصلِّي في بيتي، فأتخِذَه مصلًّى، قال: فقال له رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سأفعلُ إن شاء اللهُ**»[٢].

(إن شاء الله): هي تعليق أي أمر يريد المسلم فعله في المستقبل على مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال النووي: يستحب للإنسان إذا قال سأفعل كذا وكذا أن يقول: (إن شاء الله) تعالى على جهة التبرك والامتثال لقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[٣].

وقد قالها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في قصته مع الخضر ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ [الكهف: ٦٩]، وقالها إسماعيل الذبيح في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٢] فصبر عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى فداه الله بالذبح.

فالمستحب لمن أراد فعل شيء أو توقع حصوله في المستقبل أن يعلقه على مشيئة الله تعالى فيقول: (إن شاء الله) أو (بإذن الله) أو (بمشيئة الله).

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يُحَرِضُ الناس على جهاد التتار ويقول نحن منصورون، قالوا له: قل (إن شاء الله) فكان يقول: تحقيقاً لا تعليقاً أي: أن الله تعالى محقق ذلك بمشيئته وقدرته، فشاء الله النصر بعكس التعليق على المشيئة

---

(١) صحيح مسلم (١٦٥٤).
(٢) صحيح البخاري (٤٢٥).
(٣) الامام النووي في شرح مسلم.

وهذا يدل على ثقة شيخ الإسلام بنصر الله تعالى وعلى قوة إيمانه بالله تعالى.

ونلاحظ كثيراً من يكتب (إن شاء الله) هكذا (إنشاء الله)، وبينهما فرق كبير جداً، فمعنى الفعل (إنشاء) أي إيجاد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ [الواقعة: ٣٥] أي: أوجدناها إيجاداً.

فلو كتبناها هكذا (إنشاء الله) يعني: أننا نقول - والعياذ بالله - إننا أوجدنا الله تعالى شأنه، جل وعلا عن هذا علواً كبيراً، وهذا غير صحيح.

أما الصحيح هو أن نكتبها هكذا (إن شاء الله) فإننا بهذا اللفظ نحقق هنا إرادة المشيئة لله عز وجل فقد جاء في معجم لسان العرب معنى الفعل شاء، أي أراد. فالمشيئة هي الإرادة فعندما نكتب (إن شاء الله)، كأننا نقول بإرادة الله تعالى تفعل كذا وكذا ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

أما الاستثناء في الدعاء فلا يجوز، ففي الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يَقولَنَّ أحدُكمْ : اللهُمَّ اغفِرْ لِي إنْ شِئْتَ، اللهُمَّ ارْحمْنِي إنْ شِئْتَ، اللهُمَّ ارزقْنِي إنْ شِئْتَ، و لْيعزِمْ المسألَةَ، فإنَّهُ يَفعلُ ما يَشاءُ، ولا مُكْرِهَ لهُ**»(١). ولمسلم: «**إذا دعا أحدُكم فلا يقُلِ : اللَّهمَّ! اغفِرْ لي إن شئتَ. ولكن ليعزِمِ المسألةَ. وليُعظِّمِ الرَّغبةَ . فإنَّ اللهَ لا يَتعاظمُه شيءٌ أعطاه**»(٢).

أسأل الله لي ولكم التوفيق في الدنيا والآخرة

وصلى الله وسلم على نبينا محمد

❊❊❊

(١) صحيح الجامع (٧٧٦٣).

(٢) صحيح مسلم (٢٦٧٩).

وجبت له الجنة

قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٥].

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من ضمَّ يتيمًا بين مسلمَيْن في طعامِه وشرابِه حتَّى يستغنيَ عنه وجبت له الجنَّةُ ألبتَّةَ ومن أدرك والدَيْه أو أحدَهما ثمَّ لم يبرَّهما دخل النَّارَ فأبعده اللهُ وأيُّما مسلمٍ أعتق رقبةً مسلمةً كانت فِكاكَه من النَّارِ**»(١).

وكذلك حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا وَكافلُ اليتيمِ في الجنَّةِ هَكَذا. وأشارَ بالسَّبَّابةِ والوُسطى ، وفرَّجَ بينَهما شيئًا**»(٢).

و(كَافِل الْيَتِيم) هُوَ: الْقَائِم بِأُمُورِهِ مِنْ نَفَقَة وَكِسْوَة وَتَأْدِيب وَتَرْبِيَة وَغَيْر ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْفَضِيلَة تَحْصُل لِمَنْ كَفَلَهُ مِنْ مَال نَفْسه، أَوْ مِنْ مَال الْيَتِيم بِوِلايَةٍ شَرْعِيَّة(٣).

و(كفالة اليتيم) من أعظم أبواب الخير، وأسهل الطرق الموصلة إلى الجنة والنعيم الأبدي، فماذا بعد مرافقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجنة من الأجر العظيم، والثواب الجزيل.

فقد جاء الدين الإسلامي الحنيف يحث على الاهتمام بهذه الفئة التي ليس لها من يقوم برعايتها وتربيتها وخدمتها وكفالتها (الأيتام)، وأمرنا القرآن الكريم بذلك، وحثنا عليه المصطفى في أقواله وأفعاله، ورتب الله عليه أجراً عظيماً، جنةٍ

(١) الترغيب والترهيب (٣/ ٣١٤)، خلاصة حكم المحدث : إسناده حسن.
(٢) صحيح البخاري (٥٣٠٤).
(٣) شرح مسلم للإمام النووي.

عرضها السموات والأرض، ومرافقة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لما أمرنا وحثنا على (كفالة اليتيم) والإحسان إليه في آيات كثيرة وإدخال السرور إلى قلوبهم جعل لها جزاءً عظيماً، ونهانا عن الإساءة له فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحى: ٩] المراد: لا تُذِلُه ولا تَضُره وتُضَيق عليه وتنهره وتزجره زجراً يتأثر به نفسياً، يكفيه من الجرح في قلبه ما لا يحتمل المزيد، كأنه في الدنيا طريد، وكأنه بين أهله غريب، فقد رعاية الأب وفقد حنان الأم، يرى أقرانه مع آبائهم يذهبون وهو مكسور الخاطر ليس له أب فتدمع عينه، وربما سأل لماذا ليس لي أب؟ أين ذهب أبي؟ لا أنيس له ولا جليس، لا شقيق له ولا قريب، يرى الأطفال يضحكون ويمرحون ويلعبون مع إخوانهم فيتساءل أين إخواني؟ يبكي وتخنقه العَبرة.

وحرّم الله التعدي عليه بأكل ماله، ونهى عن هذا الجرم العظيم، وتوعد عليه بالعقاب الشديد في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء: ١٠].

ومع هذا الأجر العظيم والوعيد الشديد نجد من يظلمهم ويأكل أموالهم ويقهرهم ويفتت أكبادهم ويذلهم، وتجتمع عليهم الآلام من كل جانب، وتظلم الدنيا في وجوههم، ولم يبقَ لهم إلا الله، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

وهذا من فضل الله تعالى وتيسيره، حيث فتح علينا أبواب خير كثيرة لمن يرغب السباق إلى مرافقة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك في مكاتب الجمعيات لكفالة الأيتام، والندوة العالمية لكفالة الأيتام في الداخل والخارج ولا تكلف

الشيء الكثير، وكثرة الأيتام في كل مكان جعلت الأمر أكثر سهولة، فمن أراد مرافقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا ترده نفسه، وحبه للمال لا يشغله عن هذا الأجر العظيم، فهنيئاً لك يا كافل اليتيم يكفيك فخراً وشرفاً مرافقة أفضل الخلق وخاتم النبيين عَلَيْهِ السَّلَامُ في جنات النعيم.

۞ أبشر: يا كافل اليتيم:

بإذن الله سوف تعود عليك هذه الكفالة بالخير الجزيل في الدنيا والآخرة، وتحفظ ذريتك وقيام الآخرين بالإحسان إلى أبنائك، إكرامك اليتيم دليل على حبك لرسول الله كونه عاش يتيماً، وبيتك الذي فيه اليتيم من خير بيوت المسلمين وأحبها إلى الله تعالى، ومصاحبتك الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجنة، وتدل على طبعك السليم وفطرتك النقية وقلبك الرحيم، وترقق قلبك وتزيل القسوة عنه، تزكي أموالك وتطهرها وتزيدها، فهنئاً لك ذلك الخير الكثير، والأجر الوافر الجزيل.

***

هكذا زعموا ... كذباً

جاءني قبل ما يقارب السنة اتصال عبر الجوال من أحد الأشخاص وزملاء الدراسة، مستغربـًا هذا الاتصال وهذا الوقت وهذا الشخص الذي لم يكن بيني وبينه لقاء إلاّ مرة واحدة في العام، ومكالمة زادت على الساعة والنصف، مع معرفتي بهذا الشخص جيداً حيث لم يبلغ من العلم مبلغـًا، ولم يقرأ من كتب شيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ شيئـًا، ولم يتشرف بمجالسة العلماء لطلب العلم أو السماع لهم.

فكان ملخص مكالمته أنه أراد أن يقنعني بأن (بين كتاب الله تعالى وبين صحيحي البخاري ومسلم تناقضٌ جملة وتفصيلاً) يا ليتني متُ قبل هذا وكنت نسيـًا منسيـًا.

مع علمي وقناعتي بخلاف ما كان يحاول إقناعي به، وأن هذا الدين أصلٌ أصيل محفوظ بحفظ الله تعالى كتابـًا وسنة، وبعد جدالٍ طويل بأدلة وبراهين يائسة حاول وجادل ولكن دون جدوى، وزعم أن عقولنا تفكر أفضل من السابقين وأن لدينا كل الإمكانات، قلت له: كلاّ. . وحاشاهم أن نكون أفضل منهم، فعلماءنا الأجلاء السابقين هم الذين نقلوا لنا هذا الدين، وأننا مهما بلغنا من العلم فنحن عالة على علمهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

فسبحان الله خالق الأسباب ومسببها، فقد كانت هذه المكالمة سببـًا في البحث والاطلاع والقراءة الطويلة حول هذا الموضوع الخطير، الذي تلقفه جهّال الناس وطاروا به فرحـًا بين الناس وجهلاً منهم بعواقبه الوخيمة، وإنما هي شبهٌ ضالة

وضئيلة البراهين استند عليها المنكرون للسنة النبوية لنيل مآربهم.

لنجد وللأسف. . أنه انتشر بين بعض شبابنا المثقف بثقافة (قالوا) وثقافة الجرائد الإعلامية ومواقع التواصل أفكار هدّامة خطيرة جداً على ديننا ومجتمعنا يزعمون بحسب علمهم وثقافتهم الضحلة وجود تعارض بين كتاب الله تعالى وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حاشاهما يتعارضان ويتضادان أو يختلفان أو أن توجد أحاديث تعارض آيات قرآنية، وهذا لم يحدث بتاتاً لأنهما وحيٌ من الله تعالى فحاشاه أن يوحي بوحي يخالف بعضه بعضاً، فكيف يختلفان ومصدرهما واحداً. . عقلاً لا يجوز أبداً.

فهؤلاء الشباب مغررٌ بهم، يتلقون هذه الأشياء التي لا تنفعهم وإنما تضرهم وتضرّ منهجهم وعقيدتهم وتخالف منهج الأئمة من قبل وتخالف منهج السلف الصالح وعلماءُ الإسلام ومنهجُ هذا البلد المبارك الذي توحد على الكتاب والسنة فهم شباب مغرر بهم أصبحوا آلة سهلة في يد الأعداء وبوقاً ينفخون فيه أفكارهم الهدامة، يزعمون باطلاً أنهم يعترفون بكتاب تعالى فقط، وينكرون السنة النبوية وحجيتها بدعوى أنها لم تسلم من التحريف على مدى قرون طويلة ومخالفة بعضها لكتاب الله ويريدون إسقاط الصحيحين وصحة ما فيهما وهما أصح الكتب إطلاقاً بعد كتاب الله تعالى.

قال الحافظ السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأصل هذا الرأي الفاسد، أن الزنادقة وطائفة من غلاة الرافضة ذهبوا إلى انكار الاحتجاج بالسنة، والاقتصار على القرآن...»[1].

(١) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة: للسيوطي (ص ٦).

هكذا زعموا. . وقد كذبوا والله، بأن السنة النبوية اعتراها التحريف على مرّ الدهور والأزمان، نقول لهم ظهرت محاولات يائسة للتحريف، ولكن العلماء تصدوا لهم، وبينوا صحيح السنة النبوية من سقيمها، ومع ذلك يقارنون صحيحي البخاري ومسلم بكتابي بحار الأنوار والكافي، كيف تقارن الحق بالباطل، والهدى بالضلال؛ إنه الجهل والحماقة والغباء، فلو فكّر لعقل، لكنها أفكار تملى عليه بكرة وأصيلاً.

فهم بهذه الأفكار الهدامة يقدحون في كتاب الله تعالى ويريدون أن يهدموا عدالة وأمانة من نقلوه لنا ويريدون إسقاط السنة النبوية من التشريع الإسلامي، وينكرون صحة النقل في البخاري ومسلم وكتب الصحاح ليهدموا حجية السنة بقولهم أنها تخالف القرآن الكريم بزعمهم الباطل.

فليس هناك تعارض بين القرآن والسنة مطلقاً كما يفهمه الجاهلون، فالسنة النبوية مكملة ومفسرة للقرآن العظيم وكلاهما وحيٌ من عند الله، ولكن من أراد أن يفهم القرآن والسنة فلا بد أن يكون له رصيد من الحكمة القرآنية، وله ذوق أدبي، وعلى دراية بأغوار النفس الإنسانية وأحوال المجتمعات البشرية ودراسة عميقة للسنة المطهرة، ولا يكفي في ذلك مطالعة كتاب أو حفظ بعض الأحاديث أو تلقف الشبهات.

فهذا مصداق لحديث المقدام بن معدي كرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**ألا إنِّي أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ ، لا يُوشِكُ رجُلٌ شبعانٌ على أريكتِهِ يقولُ عليكُم بِهذَا القُرآنِ فما وجدتُم فيهِ مِن حَلالٍ فأحلُّوه وما وَجدتُم فيهِ مِن حرامٍ فحرِّمُوه**»[1].

(١) صحيح أبي داود (٤٦٠٤).

وإليكم فتوى فضيلة الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: لا يتعارض حديث مع كتاب الله أبداً ! وما يبدو حينـًا من تعارض هو من سوء الفهم لا من طبيعة الواقع، وذلك مثل حديثِ «**لن يدخُلَ الجنَّةَ أحدٌ إلَّا برحمةِ اللهِ، قالوا: ولا أنت يا رسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا إلَّا أن يتغمَّدنيَ اللهُ برحمتِه، وقال بيدِه فوق رأسِه**»[٢] وقولِه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النحل: ٣٢].

الفهم الصحيح للموضوع كله أنه لا بد من عمل يَنال به المرءُ رضا ربه ويستحق رحمته، فالجنة ليست للكُسالى والأراذل، بيْد أن العمل المقبول هو المقرون بالتواضع لله، وإنكار الذات، والقلق من أن يرفض رب العالمين العملَ المتقرَّب به؛ لأنه لا تَخفَى عليه، أو لأنه دون حقه، أو لأي سبب آخر.

فمَن تقدم بعمل وهو شامخ الأنف، ليس في حسابه إلا أنه قدَّم العمل المطلوب للجنة، وعلى الله أن يسلم له المفاتيح ليدخلها بعد ما امتلكها بعمله! هذا المغرور لا يقبل منه شيء، ولا مكان له في الجنة.

أما من جاء خاشعـًا خفيض الجناح، شاعراً بالانكسار لأنه لم يقدم ما اللهُ أهلٌ له فإنه يدخل الجنة بعمله، والدلائل على هذا المعنى كثيرة، وما يعقلها إلا العالِمون!

إن السنة بحر متلاطم الأمواج، وما يستطيع فهمها على وجهها إلا فقيهٌ يدرك ملابسات كل قول والمراد الحق منه! فإن النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ظل يكلم الناس ثلاثًا وعشرين سنة، اختلفت فيها الأحوال وتباين الأفراد وتشعبت القضايا.

---

(١) مائة سؤال عن الإسلام للغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (السؤال ٤٠).

(٢) الترغيب والترهيب (٤/ ٣٠١)، خلاصة حكم المحدث : إسناده حسن.

ووضعُ كل حديث بإزاء المقصود منه أو معرفةُ النطاق الذي يصح فيه هو عملُ الفقهاء، وهو عمل لا مَناصَ منه وإلا حرَّفنا الكلم عن مواضعه!

والمحزِن والله أن أناسًا لا فقه لهم تكلفوا ما لا يُحسنون؛ من قراءة للسنة وإفتاء بها، فأساءوا ولم يحسنوا، وهم الآن حَجَر عَثرة في طريق الدعوة الإسلامية! والذي أراه أن السنة ركن الإسلام بعد القرآن الكريم، ولكن لا يشتغل بتفاصيلها إلا الفقهاء ومن يعنيهم الأمر من الولاة والقضاء والدعاة والمتخصصين في أي مجال يحتاج إلى الإلمام بهذه التفاصيل، أما رجل الشارع أو الشخص العادي فإن أربعين حديثًا تكفيه وتُغنيه.

وعلى أية حال ما يجوز لجاهل القرآن أن يُحدِّث الناس أو يتصدر للفتوى في شئونهم.

وإن أمور الدين والقرآن والحديث لا يتكلم فيها إلاّ من له باع طويلٌ في العلم الشرعي وتأصيله وليس كل مهرج يؤخذ بكلامه، فأهل الحديث تفرغوا له وكما أهل الفقه تفرغوا للفقه وأهل التفسير كذلك، فعلم الحديث والسنة بحرٌ لا ساحل له، لا يفهم أغواره إلاّ متخصص، ولن يلج قاعه إلاّ علمائه، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

فيا عجبًا أيعقل مسلم يقول: كيف وصل لنا هذا الحديث عبر هذه القرون ولم يتغير ولم يبدل، فهذا من حفظ الله تعالى لدينه القائم على الكتاب والسنة ولا ينفصلان ولا يتعارضان ولا يتضادان أبداً، وتوفيق الله وتسخيره لأناس مخلصين تكفلوا بهذه الأحاديث تدوينًا وكتابة وتنقيحًا وتهذيبًا، فالسنة تفصيل لما جاء في القرآن العظيم وتطبيق له، القرآن وحي من الله لفظًا ومعنى، والسنة وحي من الله

معنى ومن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لفظاً.

فإنكار أي حديث صحيح لا يجوز وخاصة إذا كان يترتب عليه حكم شرعي قد يصل إلى الكفر بالله، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

ثم والله أنني أعجب أشدّ العجب؛ كيف اكتشف البعض المتعالمين تعارضاً في الدين والعلوم الشرعية ولم يكتشفه الصحابة والتابعين وعلماء الأمة الراسخين في العلم، ويكتشفه شخص ليس لديه ذرّة من العلم الشرعي إلاّ ما تلقفه من الشبهات عبر واتسابه وفيسبوكه.

وزعمه النهي المطلق من رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن كتابة الأحاديث، فالتدوين الحديث بدأ في عهد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ونهى عنه خوف الاختلاط بالقرآن، ثم أباحه بعد ذلك خوف النسيان، وتتابع العلماء على الكتابة لكن القرن الثالث تميز بالمصنفات والتجريد والتنوع في العلوم.

فهذه السنة المطهرة حجة على العباد أجمعين شاء من شاء وأبى من أبى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧] والإيمان بالرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إيمان بما جاء به، «**عليكم بسنتي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، تَمَسَّكُوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّوَاجِذِ ،وإيَّاكُم ومُحْدَثَاتِ الأمورِ؛ فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ**»[1].

ومعلومٌ أن «القرآن العظيم» أصلٌ ثابت ومقطوعٌ به على الجملة والفصيل ووظيفته الأساسية: هداية الخلق وإرشادهم لما فيه خيرهم بالدارين.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٠٩)، خلاصة حكم المحدث : صحيح.

و«السنة المطهرة» مقطوع بها على الاجمال فقط، لأنها استندت في حجيتها على ما قرره القرآن، ووظيفتها الأساسية: البيان والتفصيل[١].

وأما صحيحي البخاري ومسلم - رحمة الله على مؤلفيهما - فهما أصح الكتب إطلاقاً بعد كتاب الله تعالى، فقد قطعوا الأرض على أقدامهم من أجل تدوين السنة وحفظها من الضياع بأيدي العابثين والكذابين فلو يكتب الناس في الحديث إلى قيام الساعة فمصيرهم يرجعون إليهما.

ومقارنتهما بالكافي وبحار الأنوار جريمة عظيمة فلا يجور مطلقاً وفيه خطر على عقيدة المسلم، ولم يشرذم الأمة إلا من يتكلم بغير علم ولا معرفة ولا دراية علمية.

فلماذا لا تتفرغون أنتم أيها العباقرة وتكفون الناس مؤونة أخطاء الدهور الماضية، فتصححون السنة كاملة وتوضحون صحيحها من سقيمها، حتى تحمدكم الأجيال القادمة بما فعلتم، وألفوا في ذلك مراجع قادمة تخدم العصر الحديث تفوق صحيحي البخاري ومسلم في الدقة والصحة والشروط والتواتر والآحاد ـ وحاشاهما ـ وأعلنوا للملأ أنكم اكتشفتم ما جهله العلماء وغفل عنه السابقون من الصحابة والتابعين ومن تبعهم إلى عصرنا هذا.

فأنصح كل من أراد العلم الشرعي الصحيح فليبحث عنه في بطون الكتب الصحيحة، وليجالس العلماء الربانيون فلا يسمع لكل ناعق من الرافضة والزنادقة ودعاة التغريب، فالمسلمات والثوابت خط أحمر، ومنكري السنة يقدحون في

---

(١) الإيضاح في علوم الحديث والمصطلح: (ص ٣٦ - ٣٧).

كتاب الله تعالى أولاً، ومع ذلك اتخذوا لهم من الجهّال مطايا وأبواقـًا، ينشرون بهم شبهات[١] ضعيفة بين الناس، ويريدون بذلك هدم عدالة الصحابة ومصداقيتهم رضوان الله عليهم ليتسنى لهم الوصول ويزين لهم الطريق إلى هدم الإسلام، ونسف قواعده العظام.

***

(١) هذه الشبهات بينها العلماء وفندوها بالأدلة في مؤلفات كثيرة، ومنهم الدكتور مصطفى السباعي في كتابه: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، الفصل الرابع كاملاً والفصل الخامس في ما يقارب عشرون صفحة، ورد على منكريها قديمـًا وحديثـًا وعلى المستشرقين. . وهو أفضلها.
وكذلك الشيخ سعيد عبد الماجد الغوري في كتابه: السنة النبوية حجيتها وتدوينها.

شهادة شرف بمعركة الشرف

الشهادة نعمة عظيمة ومنزلة رفيعة عند الله تعالى لا يبلغها إلا العظماء الذين اختارهم الله، ولا يعطيها الله إلا من علم صدقه وإخلاصه من عباده المؤمنين، لأن أجرها عند الله عظيم، وأجر الشهيد عند الله كبير.

ففي يوم الجمعة ذلك اليوم العظيم تجتمع عظمة اليوم مع عظمة الشهادة لذلك البطل الشهيد الملازم عبدالله بن يحيى جابر الفيفي دفاعاً عن دينه الإسلام وعن وطنه بلاد الحرمين ومقدساته حرسها الله وزادها تعظيماً وتشريفاً فقد قدم روحه فداءً للوطن مقبلاً غير مدبر.

فكم هو شرف عظيم ناله هذا البطل الذي قاتل قتال الأبطال الأشاوس بشهادة من لقينا من زملائه، فإن القلب ليحزن وإن العين لتدمع ولكن ليس بقدر الفرح الذي يغمرنا بنيله الشهادة في سبيل الله تعالى التي كلٌ يتمناها.

ابن الجبال الشهم من فيفا أتى ... يرجو المنية في العدا يتبختر
كل الذين رأوه قد شهدوا له ... أنعم به يوم الكريهة يزأر
فلتهنئ فيفا وما هذا سوا ... فرد، وإلا مجدكم لا ينكر

فهيئاً له. . شهيدٌ قدم روحه رخيصة للدين وللوطن، لأنه يعلم أن نفسه رخيصة عند دينه ووطنه، وضحى بحياته ليهنأ بالعيش غيره، فهذه والله أعظم شهادة وأعزها وأشرفها ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩].

وهنيئًا لوالديه. . فخراً وعزاً وشرفًا لهما أن ربيا جنديًا يذود عن حمى هذا الوطن وقدموا للوطن رجلاً يخدمه، فقدم نفسه رخيصة ليحمي أهله ووطنه من كيد الأعداء، ليسهر على ثغر من ثغور الوطن يحميه، سهر الليل لننام، وضحى بحياته لنعيش «**عَينانِ لا تمَسَّهما النَّارُ : عينٌ بكت من خشيةِ اللهِ ، وعينٌ باتت تحرسُ في سبيل اللهِ**»(١).

فلما أخلص لله تعالى وصدق مع الله صدقهُ الله وتقبله شهيداً ورفع الله ذكره في العالمين، فهنيئًا له شرف الشهادة وشرف المنزلة العالية في الجنة ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

فهذا الوطن الذي تربينا على ثراه واستنشقنا عبيره وهواه وشربنا من حلو ماه، ونسمع كل يوم نداه، فلا بد نكون جنوداً مخلصين له نذود عنه وعن كل شبرٍ من حدوده، ونضحي بالغالي والنفيس من أجله، كل في مجال عمله وتخصصه فالشرطي بالميدان يحمي الأمن، والمجاهدين بالثغور يقاتلون العدو ويدحرونه، والكاتب بقلمه يدافع عنه وينشر محاسنه، والإعلامي خلف كاميراته يوثق بطولاته، والمعلم بمدرسته يغرس في نفوس الطلاب حقوق الوطن والدفاع عنه وحقوق ولاة الأمر من السمع والطاعة الذين هم قادة هذه السفينة التي تمخر بنا عباب الحياة.

اللهم دمر أعداء الدين وأهلك المجوس وأعوانهم وأذنابهم من الروافض والحوثيين، اللهم لا ترفع لهم راية واجعلهم لمن خلفهم عبرة وآية، اللهم فرق

---

(١) سنن الترمذي (١٦٣٩)، خلاصة حكم المحدث : حسن.

جمعهم وشتت شملهم واجعلهم غنيمة للمسلمين.

واحفظ اللهم بلادنا من كل سوء ومن شرّ طوارق الليل والنهار.

اللهم احفظ علينا أمننا وإيماننا وعقيدتنا وقيادتنا وعلماءنا ورجال أمننا، والمجاهدين على الثغور، اللهم انصرهم وسدد رميهم ووحد صفهم يا سميع الدعاء.

❊❊❊

بشائر للمرابطين

هذه عشرُ بشائر نزفها حباً لإخواننا وجنودنا البواسل المجاهدين المرابطين على ثغور بلادنا وحدودها ـ المملكة العربية السعودية ـ، تركتم الأهل والمال والأوطان وقدمتم أنفسكم وأرواحكم رخيصة من أجلنا ودفاعاً عن الدين والوطن، فأنتم تدافعون عن بلاد التوحيد، بلاد الحرمين الشريفين، مهبط الوحي، فوالله لن ننساكم فنحن بإذن الله عوناً لكم من خلفكم بالدعاء والترابط والتلاحم تحت قيادة واحدة، ونرفع ليلاً ونهاراً أكف الضراعة إلى الله بأن يحميكم ويحفظكم ويسدد رميكم ويربط على قلوبكم ويدحر عدوكم ويهلكه ويجعل كيده في وبال.

فالجهاد والرباط في سبيل الله شرفٌ لكم فهو أشرف القربات وأجلّ الأعمال عند الله تعالى يجري عليك عملها بعد موتك، وهو ذروة سنام الإسلام.

وقد فضلكم الله في كتابه وأنكم لا تستوون مع من هو قاعد في بيته بغير عذر ولا مرض ولا سبب شرعي، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء: ٩٥].

البشارة الأولى:

اعلم أخي المرابط في سبيل الله ـ وفقك الله وسددك ـ أنك تقاتل في سبيل الله ومن أجل الله تعالى ومن أجل كلمة الله وأنك تحارب أعداء الله وأعداء دينه، وأنك على الحق بإذن الله، فأبشر ثم أبشر بقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قال**

أعرابيٌّ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **الرجلُ يُقاتلُ للمغنمِ، والرجلُ يقاتلُ ليُذْكَرَ، ويُقاتِلُ ليُرَى مكانُهُ، من في سبيلِ اللهِ؟ فقال: من قاتلَ ، لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا ، فهوَ في سبيلِ اللهِ»**[(١)].

۞ البشارة الثانية:

اعلم أخي المرابط في سبيل الله ـ وفقك الله وسددك ـ أن غدوة أو روحة لك في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها، فأنت تغدو وتروح في أجر وخيرٍ عظيم، هنيئًا لك ولكل المرابطين معك بهذه البشارة العظيمة، قال رسول الهدى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لغدوةٌ في سبيلِ اللهِ أو روحةٌ خيرٌ منَ الدُّنيا وما فيها ولقابُ قوسِ أحدِكم أو موضعُ يدِه في الجنَّةِ خيرٌ منَ الدُّنيا وما فيها ولَو أنَّ امرأةً من نساءِ أهلِ الجنَّةِ اطَّلعت إلى الأرضِ لأضاءت ما بينَهما ولملأت ما بينَهما ريحًا ولنصيفُها علَى رأسِها خيرٌ منَ الدُّنيا وما فيها**»[(٢)].

۞ البشارة الثالثة:

اعلم أخي المرابط في سبيل الله – وفقك الله وسددك – أن عينك التي تسهر بها وتراقب بها الثغور والحدود، بإذن الله من الأعين التي قال عنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**عَينانِ لا تمَسَّهما النَّارُ: عينٌ بكت من خشيةِ اللهِ، وعينٌ باتت تحرسُ في سبيلِ اللهِ**»[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري (٣١٢٦).
(٢) صحيح الترمذي (١٦٥١).
(٣) سنن الترمذي (١٦٣٩).

هنيئـًا لك أيها المرابط على حدود بلادنا الأجر العظيم والثواب الجزيل، وقد تكفل الله بحفظ المجاهدين والمرابطين إن مات فهو في الجنة، وإلاّ عاد لأهله سالمـًا غانمـًا مأجوراً.

۞ البشارة الرابعة:

اعلم أخي المرابط في سبيل الله - وفقك الله وسددك - أن الله قد بشركم بالأجر العظيم في كتابه مع الصبر والاحتساب عنده، فقال تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] وسماكم الله جَلَّوَعَلَا مرابطين، ولكم الفخر والشرف والعزة بأن سماكم مرابطين في كتابه العظيم.

۞ البشارة الخامسة:

اعلم أخي المرابط في سبيل الله - وفقك الله وسددك - أنك في خير عظيم لن يجده إلاّ من كان مرابطـًا معك على حدود البلاد وثغورها يذود عن حماها ويدحر عدوها، ورباطكم هو جنةٌ لكم ولو كان متعبـًا ومجهداً، هذه بشارة لكم؛ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**رباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيامِ شَهْرٍ وقِيامِهِ . وإن ماتَ، جَرى عليهِ عملُهُ الَّذي كانَ يَعملُهُ، وأُجْرِيَ عليهِ رزقُهُ، وأَمِنَ الفتَّانَ**»(١). وإذا مات المرابط في رباطه وقاه الله تعالى فتنة القبر، وقد قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**رباطُ يومٍ في سبيلِ اللهِ أفضلُ - وربَّما قالَ خيرٌ - من صيامِ شَهْرٍ، وقيامِهِ ومن ماتَ فيهِ وقيَ فتنةَ القبرِ ونُمِّيَ لَه عملُهُ إلى يومِ القيامةِ**»(٢).

---

(١) صحيح مسلم (١٩١٣).

(٢) صحيح الترمذي (١٦٦٥).

۞ البشارة السادسة:

اعلم أخي المرابط في سبيل الله - وفقك الله وسددك - أنك خير الناس، فخيرهم المجاهد الممسك بسلاحه الذي ترك ملذات الدنيا وأهله وماله وديارِه ليقاتل الأعداء ويرفع كلمة الله تعالى وأنتم كذلك بإذن الله تقاتلون من أجل كلمة التوحيد، كلمة (لا إله إلاّ الله محمدٌ رسول الله)، قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ألا أخبرُكُم بِخَيرِ النَّاسِ؟ رجلٌ مُمسِكٌ بعَنانِ فرسِهِ في سبيلِ اللهِ. ألا أخبرُكُم بالَّذي يَتلوهُ؟ رجلٌ معتزِلٌ في غُنَيْمةٍ يؤدِّي حقَّ اللهِ فيها. ألا أخبرُكُم بِشرِّ النَّاسِ؟ رجلٌ يُسأَلُ باللهِ ولا يُعطي بِهِ**»(١).

۞ البشارة السابعة:

اعلم أخي المرابط في سبيل الله ـ وفقك الله وسددك ـ أن الله لن يجمع عليك غبارٌ في سبيله ودخان جهنم، وأن الغبار الذي يدخل جوفك ومغبراً قدمين وهذه الحجارة التي تصيبك في سبيل الله تكون مانعـًا من دخول النار، كما بشر بذلك المصطفى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من حديث أبِي هريرة أنّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَال: «**لا يجتَمِعانِ في النَّارِ مُسلمٌ قتلَ كافرًا ثمَّ سدَّدَ وقاربَ ، ولا يجتَمعانِ في جوفِ مؤمنٍ غبارٌ في سبيلِ اللهِ وفيحُ جَهَنَّمَ ، ولا يجتمعانِ في قلبِ عبدٍ الإيمانُ والحسدُ**»(٢).

۞ البشارة الثامنة:

اعلم أخي المرابط في سبيل الله - وفقك الله وسددك - أن من قتل مرابطـًا

(١) صحيح الترمذي (١٦٥٢).

(٢) صحيح النسائي (٣١٠٩) ، خلاصة حكم المحدث : حسن.

مجاهداً مقبلاً غير مدبر فهو شهيدٌ بإذن الله تعالى، وقد بشره بالنعيم العظيم في جنات النعيم وهم في المنزلة الثالثة بعد الأنبياء والصديقين من الذين أنعم الله عليهم في جنات الخلد، كما في الحديث: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**للشَّهيدِ عِندَ اللهِ ستُّ خصالٍ : يُغفَرُ لَه في أوَّلِ دَفعةٍ ويَرى مقعدَه منَ الجنَّةِ ويُجارُ مِن عذابِ القبرِ ويأمنُ منَ الفَزعِ الأكبرِ ويُوضعُ علَى رأسِه تاجُ الوقارِ الياقوتةُ منها خيرٌ منَ الدُّنيا وما فِيها ويزوَّجُ اثنتَينِ وسبعينَ زَوجةً منَ الحورِ العينِ ، ويُشفَّعُ في سبعينَ مِن أقاربِه**»[١].

۞ البشارة التاسعة:

اعلم أخي المرابط في سبيل الله – وفقك الله وسددك – أنه إذا قُتِل الشهيدُ لم ينقطعْ عمله الصالح ولن يتوقف أجره، بل يزيدُ ويتضاعف؛ فعن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**كلُّ ميِّتٍ يُختَمُ على عملِه إلَّا الَّذي ماتَ مرابطًا في سبيلِ اللهِ فإنَّهُ ينمي لَهُ عملُهُ إلى يومِ القيامةِ، ويأمنُ فتنةِ القبرِ، وسمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: المجاهدُ مَن جاهدَ نفسَه**»[٢].

۞ البشارة العاشرة:

اعلم أخي المرابط في سبيل الله – وفقك الله وسددك – أن الشهيد الذي غادَرَ هذه الدنيا الفانية ليس بميتٍ يُحسَب في عداد الأموات، بل هو حيٌّ يعيشُ حياةً برزخيَّة يعلمها الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ

(١) صحيح الترمذي (١٦٦٣).
(٢) سنن الترمذي (١٦٢١).

بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

***

وطن الوفاء

كانت دعوة إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وطلبه من الله تعالى أن يمن على هذا البلد بنعمة الأمن قبل نعمة المأكل والمشرب لأهمية الأمن في الحياة، إذْ كيف يستسيغ الآكل لذة أكله وسد جوعه وبين جوانحه خوفٌ يحيط به ترتعد منه فرائصه، ولن يطيب له المقام بها أبداً ولن يهنأ له عيشٌ بتاتاً وهو يعاني الخوف، فقدم خليل الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نعمة الأمن على نعمة العيش، فاستجاب الله دعوة خليله وجعل هذا البلد آمناً مطمئناً بفضله رخاءً بجوده وكرمه، فهو بدعوته وطن آمن بفضل الله تعالى وحفظه، والوطن الآمن تهفو له القلوب، وتهواه النفوس، وتعشقه كل الناس، وطن آمن بحرمة الحرمين الشريفين وأمنهما، وطن به قبلة الإسلام المسلمين ومهد الرسالة المحمدية، ومهوى الأفئدة قاطبة، ويضم جسد أطهر الخلق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت ثرى طيبة الطيبة، بلاد تحتضن مقاسات الإسلام وملايين الحجاج كل عام، ويرفل بنعيمها وأمنها ملايين الناس غير أهلها وساكنيها من جميع الدول، وطن آمن – ولله الحمد والمنة – والأوطان تتهاوى وتتساقط من حولنا على مرأى ومسمع من العالم كله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

بلاد تحكم بشرع الله تعالى منذ قيامها على يد الإمام محمد بن سعود والإمام محمد بن عبدالوهاب رحمة الله عليهما، ثم الإمام تركي بن عبدالله رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثم جاء بعدهم مؤسسها وباني وحدتها الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأرسى قواعدها على النهج القويم والطريق المستقيم وجعل دستورها كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا تحيد عنهما أبداً.

بلاد فتحها المؤسس رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالسيف ونَشْرِ الخير وضحى بروحه وبجنوده من أجل بقائها صامدة في وجه الأعداء، وفي وجه كل من سولتْ له نفسه سوءً بها وفيها، وجعل قواعدها راسخة ثابتةً على الشرع المطهر فلن يضرها شيء بإذن الله، وقامت على بطولات وملاحم تاريخية مسطرة في دواوين التاريخ، ولها ماضٍ عريق يضرب في عمق التاريخ، فمن يقرأ تاريخ المملكة العربية السعودية في الكتب والمؤلفات يرى العجب، تاريخ مجيد وبطولات وانتصارات ومعارك عظيمة وتوحيد لشتات البلاد، شرقًا وغربًا شمالاً وجنوبًا وفتح للرياض واستيلاءٌ على المصمك قصر الحكم السعودي العريق واستعادة ملك الآباء والأجداد، وتطهير لمكة المكرمة والمدينة المنورة من المستعمر، وتأليف بين القبائل المتناثرة والمتحاربة، وتأمين عيشها ومعاشها، وتأمين لحدود الوطن المترامية الأطراف.

وطن كلُ همه وهمُ قيادته الرشيدة المباركة القيام على خدمة الشرع وخدمة المسلمين في أصقاع الأرض المعمورة شرقًا وغربًا، ألا يستحق منا التضحية والفداء بكل غالٍ ونفيس ليبقى عزيزاً شامخًا، كما هو دائمًا وباقٍ في شموخه وعزته، وطن عزيز وغالٍ على قلوب أهله ومحبيه، ينافحُ بكل ما أوتيَ من قوة عن الإسلام والمسلمين ويهتم بقضاياهم في كل مكان.

وطن لن ينثني عزمه القوي الشامخ، الشديد البأس على أعدائه بفضل الله وتوفيقه، وبعزم رجاله الأوفياء وقادته الأقوياء، وطن الوفاء وطن العزة والكرامة، وطن الخير والنماء، وطن الإسلام والمسلمين، وطنٌ وفرّ لشعبه كل ما يحتاجه وكل ما أراده من سبل الراحة لينعم بالعيش الهنيء، وطن يرفل كل من بداخله بنعمة الأمن والأمان وسلامة الأوطان والعيش الرغيد، رغم أنف كل حاسد وحاقد من الشرذمة الفاسدة التي لقيت حتفها على أيدي رجال أمننا البواسل وفقهم الله وثبتهم، وهو مصير كل عدوٍ لهذا الوطن الغالي.

فيجب علينا الوفاء بالعهد لوطن الوفاء، وأن نقدم أرواحنا رخيصة من أجل بقائه وشموخه ورفعة شأنه، ومن أجل حماية الإسلام ومقدساته وحماية الوطن ونذود عنه لنعيش ونفخر به.

فهذا الوطن الغالي الذي تربينا على ثراه واستنشقنا عبيره وهواه وشربنا من ماءه العذب الزلال، ونسمع كل يوم منادي الإسلام (حي على الصلاة) لا بد أن نكون جنوداً له مخلصين له ونذود عن حماه وعن كل شبرٍ منه، ونضحي بالغالي والنفيس من أجله، كلٌ في مجالِ عمله وتخصصه، فالشرطي بالميدان يحمي الأمن ويحرسه، وأهل العلم من منابرهم يرشدون الناس ويوجهونهم بالحجج والبراهين، والمجاهدين بالثغور يقاتلون العدو ويدحرونه، والكاتب بقلمه يدافع عنه وينشر محاسنه، والإعلامي خلف كاميرته يوثق بطولاته التاريخية، والمعلم بمدرسته يغرس في نفوس طلابه حقوق الوطن والمواطنة والدفاع عنه وحقوق ولاة الأمر من السمع والطاعة لهم، فهم ربّان وقادة هذه السفينة التي تمخر بنا عباب الحياة، ولا ننجرّ وراء الأفكار الهدامة التي تعادي ديننا وأمننا وعقيدتنا

وقيادتنا سواء بحسن نيّة أو بغيرها، لأن وراءها شرّ مستطير وخسارة في الدنيا والآخرة، ويجب علينا شرعـًا أن نكون صفـًا واحداً مع قيادتنا الرشيدة قلبـًا وقالبـًا وبالدعاء لهم، وندعو الله أن يجعلهم صالحين مصلحين، لأن بصلاحهم صلاح البلاد والعباد.

قال أحد السلف: «لو علمتُ أن لي دعوةً مجابة لجعلتها للسلطان، فقيل له في ذلك؛ فقال: لأن بصلاحه صلاح العباد والبلاد».

ويروى عن العلامة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «ما سجدت لله سجدة إلاّ ودعوت فيها لولاة الأمر بالصلاح والتوفيق والسداد، لعل الله أن يجعل في صلاحهم صلاح العباد والبلاد».

ونحن نرى الشهداء يتساقطون ويقدمون أرواحهم رخيصة دفاعـًا عن دينهم ووطنهم ومقدساتهم وما ذاك إلاّ مصداقـًا لحبهم ووفاؤهم له ورجولتهم التي جعلتهم يفوزون بالشهادة وبالمنزلة العظيمة عند الله تعالى ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فقد ضحوا بأنفسهم وأرواحهم من أجل راحتنا وسلامتنا، سهروا على الثغور لننعم النوم بالهانئ، تعبوا وتغربوا وتركنوا الأهل والأوطان من أجل راحتنا، فليبشروا ببشارة «عينان لا تمسهما النار ... وعين باتت تحرس في سبيل الله» وهم في عبادة ما داموا في مرابطين الثغور، وإن غدوة أو روحة في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها. . وفقهم الله وسددهم وثبتهم.

اللهم وفق إمامنا وولي أمرنا خادم الحرمين الشريفين بتوفيقك وأيده بتأييدك وسدده في أقواله وأعماله وأفعاله، اللهم هيأ له البطانة الصالحة الناصحة التي تعينه على الخير وتدله عليه، اللهم وفقه ونائبه وأعوانه ووزرائه لما فيه صلاح العباد والبلاد، اللهم احفظ علينا أمننا وإيماننا وعقيدتنا وقيادتنا ورجال ديننا ورجال أمننا وحدود بلادنا وانصر المجاهدين المرابطين على الثغور وثبت أقدامهم وسدد رميهم ووحد صفهم يا حي يا قيوم.

❊❊❊

البيعة

إن مما أنعم الله به علينا في هذه البلاد الطاهرة بلاد الحرمين، المملكة العربية السعودية بأن حبانا الله ولله الحمد على فضله وإحسانه نحن الشعب السعودي ولاة أمر خيرين طيبين عادلين ميزنا وفضلنا بهم على العالمين، فإن كان واجب ولاة أمورنا حفظهم الله مراعاة شؤوننا والوقوف على كل ما يكفل لنا حياة كريمة فمن واجبنا نحن أيضاً أن نقابل الإحسان بمثله.

وأن نبايع ونجدد ولائنا ونعلن بيعتنا لولاة أمورنا (آل سعود) حفظهم الله وسدد على طريق الخير خطاهم، نبايعهم على كتاب الله وسنة نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونشهد الله على ما في قلوبنا والله خير الشاهدين.

فالبيعة الواجبة لولي الأمر هِيَ: العهد عَلَى السمع والطاعة بِالْمَعْرُوفِ.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠].

وعَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**دعانا رسولُ الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا: أنْ بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «السلطان ظل الله في الأرض».

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٩٠-٢٩١).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم».

فالبيعة لازمة وواجبة فِي عنق كُلّ مؤمن، والتحذير مِنْ خلعها وإِذَا بايع أهل الحل والعقد السلطان أَوْ الملك المسلم أَوْ تغلب عَلَى بلد مِنْ البلاد وجب عَلَى مِنْ يستوطن تِلْكَ البلاد البيعة لولي الأمر، وأن يعقدها بقلبه، وأن يقوم بحقها، وأن يحفظ عهد الله وميثاقه.

وبيعة أَهْل الحل والعقد لازمة عَلَيْهِمْ، وملزمة لمن يقع تحت سلطان ولي الأمر كما عليه أهل السنة والجماعة.

فلما بايع أهل الحل والعقد أبا بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لزمت هذه البيعة جميع المسلمين.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: ٥٩].

فأمر الله عَزَّوَجَلَّ بطاعته وطاعة رسوله وطاعة ولاة أمور المسلمين وهذا يتضمن الإقرار ببيعتهم، وأنهم داخلون تحت ولايته ملزمون ببيعته.

وَقَدْ قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من خلع يدًا من طاعةٍ ، لقيَ اللهَ يومَ القيامةِ ، لا حُجَّةَ له . ومن مات وليس في عُنُقِه بَيعةٌ ، مات مِيتةً جاهليةً**»[٢].

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ١١٧).

(٢) صحيح مسلم (١٨٥١).

والأصل أَنَّهُ لا يلزم أن يحضر كل الناس إلى ولي الأمر، فمبايعه أهل الحل والعقد كافية، وَتُلْزِمُ بقية الرعية بتلك البيعة، وَلَكِنْ لو ألزم الإمَامُ الرعية بالحضور للبيعة وخصص لَهُمْ أماكن لِذَلِكَ لمصلحة يراها الإمَامُ وجب عَلَى جميع الرعية طاعة الإمَامُ، والحضور حيث أمرهم الإمَامُ للبيعة .

۞ وأخيراً:

نعلن تجديد البيعة لخادم الحرمين الشريفين وولي عهده الأمين ولكافة ولاة الأمر من الأسرة المالكة، ونعاهد الله ونعاهدكم على السمع والطاعة في المنشط والمكره وألا ننازع الأمر أهله، وأن نكون جنوداً أوفياء لديننا ولولاة أمورنا ولهذا الوطن الغالي. اللهم احفظ ديننا وقيادتنا ووطنا الغالي.

***

رحل سلطان الخير

كذا فليجـل الخطب وليفـدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

رحل سلطان الخير، سلطان بن عبد العزيز آل سعود ولي العهد السعودي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

ليس لعين لم تبكي فراقه عذر، وليس لعين لم يفض دمعها عذر، فقدنا سلطان الخير، رجل الخير، رجل الدولة، ورجل الدين، ورجل المجتمع، رجل الأمن لهذه البلاد، رجل الإنسانية، رجل الخير لكثير من الناس.

كنا ننتظر ونترقب يومـًا بعد يوم ببالغ الشوق والفرح خروج خادم الحرمين الشريفين من الأزمة المرضية التي كان يعاني منها، فإذا بنا نفاجئ في صباح يوم السبت ٢٤/ ١١/ ١٤٣٢هـ بخبر رحيل ولي العهد السعودي، سلطان الخير، الذي آلمنا رحيله وليس أي رحيل أي شخص، فهو صرح من صروح الدين والدولة والوطن الإسلامي والعربي.

والله كان وقع الخبر علينا كالصاعقة، أحزننا رحيله، وآلمنا فراقه، وإن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول إلا ما يرضي الله وإنا والله بفراقك يا سلطان الخير لمحزونون، فنعزي خادم الحرمين الشريفين وإخوانه، وأفراد الأسرة السعودية المالكة، والشعب السعودي، والأمتين العربية والإسلامية في وفاة ولي العهد سلطان الخير ابن عبد العزيز آل سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وغفر له، وأسكنه فسيح جناته.

فقد كان حريصاً على فعل الخير ومدّ يد العون للمحتاجين وللمتضررين، فقد أفنى حياته في خدمة الدين والوطن، وسخر نفسه لخدمة الأمتين العربية والإسلامية وكذلك الإنسانية، وفعل الخير، حتى عرف بسلطان الخير.

فقدت البلاد أحد قادتها ورجالاتها الذين لا يخافون في الله لومة لائم، والذين كانوا ينافحون عن أمن البلاد واستقراره، والله فقده المحتاج والمعوز قبل الكل وفقده القاصي والداني، وفقده العالم العربي والإسلامي.

صاحب ابتسامة مشرقة لا تغيب عن محياه، صاحب أيادي بيضاء لكل الناس في الداخل والخارج، صاحب المشاريع الخيرية، صاحب المؤسسات الخيرية، صاحب المواقف النبيلة، فتاريخه كله حافل بالخير والكل يعرف ذلك.

رحمك الله يا سلطان الخير، رحمك الله يا ولي العهد، رحمك الله يا أبا خالد، رحمك الله يا سلطان العطاء، رحلت عن أعيينا ولكنك لم ترحل من قلوبنا، ولن ننساك أبداً.

اللهم آجرنا في مصيبتنا وأخلفنا خيراً منها، ويبقى له علينا من الحقوق أن نرفع أكف الضراعة إلى الله تعالى ابتهالاً أن يتغمده الله بواسع رحمته وأن يرفع درجته في الجنة.

إنا لله وإنا إليه راجعون

❊❊❊

الديسة.. مغان ومعان

الحمدُ لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسَان ما لم يَعلم، والصلاة والسلام على المُعلم الأولُ للبشرية صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. . **أما بعد:**

الديسة قرية صغيرة متواضعة، شبه متحضرة، تقع في منطقة تبوك تتبع محافظة ضباء وتبعد عن مدينة تبوك حوالي ١٨٠كم جنوبـًا، قرية زراعية فيها من جميع المحاصيل، تغطيها النخيل، أهلها ذو أخلاق عالية، لهم عادات وتقاليد تعجب الزائرين، فيها مناظر خلابة، ومناظر غريبة، ومزارع عديدة.

في هذه القرية وضعت أول قدم لي في مشوار العمل التعليمي، وعلى ثرى هذه البقعة شعرت بحب الوطن، والانتماء إليه، وخدمته بعيداً عن النظر إلى مكان الميلاد، على أرضها تعلمت أن الإنسان إذا أراد العطاء فلا يمنعه وعورة الطريق ولا غربة المكان، ولا قلة المقومات الحياتية التي تصبح أحيانـًا ترفـًا في حياة الإنسان، فمن تربتها أحسست أن الواجب يتضاعف، وأن يدي ويد زملائي ستجعل من هذه التربة واحة غناء، من شدة حرارة شمسها أيقنت أن حرارتها دفء يشد من عزمي وقوتي، نظرتُ إلى جبالها الشاهقة فقرأت فيها أن الشموخ مرتقى سهل يمكن للإنسان أن يرتقيه بالعزم والإصرار والتحدي، وأبصرت في أعلى قممها غرفة، ترى منها الديسة بأكملها أسفل منك، فعَزَّزَتْ في نفسي ألا عسر مع اليسر، ولا صعب مع الصبر، وبالصبر تُنالُ القِمم.

خلو مكانها من السكان أحيانـًا جعل الترابط بيننا أقوى كالأسرة التي تسكن

المكان منفردة، عليها أن تُحافظ على المكان، وتشيد البُنْيان، وتقيم وثائق عرى الإيمان وتخلق من الألفة والمحبة جسراً لبقية الأيام، ومن التسامح نموذجاً.

عندما يقترب المساء يبدأ الهدوء ويظلم المكان قبل أوان الظلام؛ لأن أعالي الجبال تحجب الشمس مبكراً، فتوحي للنفس أن الليل قد حلّ وعسعس، وعندها تشتد الحاجة إلى المأوى، وسرد الحكايات والقصص والانشغال بالقراءة والإطلاع حتى نقطع الوقت والليل الشاتي الطويل، لننتظر الصباح بإشراقة شمسه، لنرى وجوهاً مشرقة، تلوح لك من بعيد.

جبالها الشاهقة تضفي إلى النفس شموخاً، وإلى العزة علواً، وإلى القلب ارتياحاً فبدل أن تتبدد العين في النظر يمنة ويسره، تصبح محلقة في السماء، فيكسبها سعة في الأفق، وبعداً في النظر، وسناء في الفكر، وأن ماءها العذب الذي ينسدل من جبالها فيكسي واديها يوحي إلى النفس: أن الحياة أمل، كما أن الماء قوام الحياة.

تعلمت من مدرستها أن الحياة مدرسة ليست صعبة، وأن مخالطة الناس أساس الحياة ومعرفة العادات والتقاليد المختلفة تجعلك تعايش المجتمع بكل فئاته، فأحببت من خلالها اليد التي تعمل والعقل الذي يفكر، والقلب الذي يحب، والمعلم الذي ينتج، والطالب الذي يجتهد، والطفل الذي يلعب، والشخص الذي يكسر المعاناة بابتسامته المشرقة، والأب الذي يسأل عن أبنائه، والمنهج الذي يربي، والكتاب القيّم المفيد، والإنسان المسرور بعمله.

فراغها شغلٌ في التفكير في طيبة أهلها، وكريم خصالهم، ونبيل صفاتهم، وصفاء قلوبهم، وجُودُ كرمهم، وجمال ابتسامتهم، وجميل عاداتهم وتقاليدهم، وطيبُ كلامهم الذي يفوح من ألسنتهم

كأن الديسة أكسبتهم من جمالها الأخّاذ جمال الطباع، وترابها الذهبي أورثهم طباع الجمال، وخضرتها أكسبتهم رواء العقول، وبداوتهم أورثتهم صفات الرجال وبعدهم عن الحضارة أكسبهم نقاء العقول وصفاء الأذهان، واتساع كثبانها الرملية أورثهم سعة الصدور.

لنا مع أهلها ذكريات جميلة، لقينا منهم الحفاوة والتقدير، والكرم والسخاء في كل دار وفي كل مزرعة وفي كل جزء من أجزائها.

نودع الديسة بعد أيام قلائل، نرحل عنها وقلوبنا معلقة بها، نحمل الحُبَ والوفاءَ لأهلها، ولن نذكر أهلها إلاّ بكل خير وندعو لهم بإذن الله، وإن لاح لهم طيفنا فلن يذكرونا إلاّ بخير ويكفون عن مساوينا، ولن ننسى لهم جميل الفعال، والله نبكي على مغانيها، نفقد ماءها العذب الزلال بواديها، نرحل عن أناس عرفناهم من أهلها، فلا نقول لهم وداعـًا؛ ولكن لنا لقاء بإذن الله تعالى، فإذن عز في الدنيا اللقاء ففي مواقف الحشر نلقاكم ويكفينا.

نستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، يا أهل الديسة، تلكم القرية العزيزة الغالية.

❊❊❊

تبوك الورد.. تسلبُ الألباب

منطقة تبوك أرض مباركة طيبة لوقوعها في الشام، لها تاريخ عريق عبر العصور والحضارات المتعاقبة، فتركَتْهَا شاخصة للأجيال، من القلاع، والهجر، والمعالم وتُوج تاريخها بقدوم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لها في غزوة تبوك في شهر رجب للسنة التاسعة من الهجرة النبوية والتي سماها القرآن الكريم ساعة العسرة قال عنها رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**يُوشكُ يا معاذُ ! إن طالت بك حياةٌ ، أن ترى ما ههنا قد مُلِئ جِنانًا**»[1]، وبذلك يشير إلى أرض تبوك.

هي (تبوك الورد) كما سماها سمو أميرها، وكما يحلو لأهلها تسميتها، ومملكة الورد، وتبوك الحضارة والأصالة.

مع إشراقة شمس أول يوم وطئت فيه أقدامي مطارها، كنت في سمائها فرأيتها والسحاب يعلوها، أدهشتني مناظرها، رأيت عظمة صنع الله تعالى في أرضها، في جبالها، في بحارها، في وردها الطبيعي، في ثروتها الزراعية، وفي ثروتها السمكية، أحسست بحب هذه المنطقة من أول يوم دخلتها، زرت أكثر معالمها التاريخية، وأماكن الآثار فيها، والقلاع القديمة.

أخذت لمحة تاريخية مصورة من خلال الزيارات المتكررة في عام واحد، وكذلك من خلال كتاب (تبوك أصالة وحضارة) الذي أهداني مؤلفه المصور المبدع الأستاذ: عيسى الحمودي وفقه الله.

---

(١) صحيح مسلم (٧٠٦).

دخلتها برفقة بعض زملاء الدراسة ممن وجه للعمل بهذه المنطقة، وكالعادة السفر الطويل المتعب نفسيًا وبدنيًا يحتاج في آخره إلى راحة لمدة طويلة، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**السفرُ قِطعةٌ من العذابِ ، يمنعُ أحدَكم نومَه وطعامَه ، فإذا قضَى نُهْمتَه من وجههِ فليعجلْ إلى أهلِه**»(١).

قمنا برحلة استكشافية لبعض آثارها التاريخية التي كنا نسمع عنها، وجولة سريعة للتعرف على المنطقة، بعد الانتهاء من أوراق العمل، ثم ذهبت إلى مقرّ عملي (الديسة).

في هذا العام الجميل - السنة التبوكية - وجدت السعادة والأنس وراحة البال، فقد كانت من أروع السنوات في حياتي، تعرفت على الصحبة الطيبة، استفدت من الأوقات السعيدة فيها، أخذت منها أجمل الصور، قرأت تاريخها من أفواه أهلها، قلّبت صفحاتها وأطلقت طرفي فرأيت أجمل الصور، وتصفحت تاريخها فوجدت تاريخًا مشرقًا عريقًا، وجدت لها حضارات تعاقبت عليها القرون، تخلل هذا العام عدة زيارات تصويرية للمعالم والآثار والمحافظات والقرى والحضارات القديمة.

إن تحدثتُ عن أجوائها فأفضل الأجواء، هواء عليل، نسيم الصباح، شتاء طويل بارد، صيف خفيف حرّه، الشمس زاهية الجمال تمد خيوطها البيضاء على السهول والجبال ليرتفع الظلال وتمتلئ بذرات نورها الشوارع والبيوت والقفار، وبدرها يرسل ضوءه على كثبانه الرملية فتحلو عليها الكشتات، والرحلات والسمر، ويداعب شواطئها وأمواجها الزرقاء.

---

(١) صحيح البخاري (٥٤٢٩).

إن أردت الفواكه والخضروات الطازجة وجدتها في تبوك تقطفها بيدك من صنوف شتى إن أردت النظافة فبحرها وشواطئها مثل شاطئ قيال، شرما، حقل، ضباء وغيرها من أنظف البحور والشواطئ، إن بحثت عن الترتيب والتنظيم في أحيائها والاهتمام بشوارعها رأيت ذلك في مدنها، وإن سرحت نظرك في مواطن الآثار والمعالم التاريخية القديمة والقلاع الأثرية فتحتضن تبوك الكثير منها.

إن أردت المدن الزاهية الجميلة والمناظر الخلابة فمدنها من أحسن المدن في هذه البلاد الواسعة، فيها ضباء الشمال بقلعتها السعودية وبقراها وهجرها وبداوتها والديسة وعينها العذبة، وقريتها النبطية ونحوتها الصخرية، والمويلح وقلعتها العثمانية، وحقل بحدودها التي ترى منها جبال طور سيناء الذي كلم الله عليه كليمه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفلسطين المحتلة، وتيماء بسورها، وبئرها (هداج) أشهر بئر عرفه العالم القديم في شمال غرب الجزيرة، وقصرها الحمراء، وقصر الرضم (الأبلق) وبآثارها القديمة من قبل الميلاد، ومدينة تبوك بوردها الطبيعي، وقلعتها العثمانية، وعين السكر التي تفجر ماؤها بيد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومسجد التوبة، ومحطة السكة الحديدية.

والبدع ومغاراتها لقوم شعيب، وبئرها المحفور في الصخر السعيدني، والوجه المحطة البرية للحجاج، وأملج بمينائها الحوراء الاسلامي، وأماكنها السياحية الجميلة.

في تبوك الورد يستمتع أهلها بأجوائها الخلابة، وينعمون بعيشها الوافر، ويسيحون في أرضها الواسعة، ومعالمها التاريخية، وآثارها القديمة، وقلاعها الأثرية، وتاريخ الأمم السابقة، وقرونها الغابرة.

لما حان موعد الوداع والفراق خرجت مني دمعة على فراق تبوك الورد، حزنت لفراق تبوك الورد، ومملكة الورد، وكوكبة الورد، والله سال الدمع من عيني لفراقها وفراق الصحبة الطيبة الغالية فيها، (أُدخلت تبوك وأنا مكره، وأُخرجت منها وأنا مكره)، تدخلها وأنت تبكي من بعد المسافة وطول الطريق، وتخرج منها وأنت تبكي حزنـًا على فراق أهلها وجمالها وطيبة أجوائها.

في هذه اللحظة الأخيرة يعجز الفكر عن تكوين الأحرف لشكر الأصدقاء والأقارب والخلاّن فيها على ما لقيناه منهم من حفاوة وتكريم، وحسن الضيافة، وتعجز الكلمات عن صياغة عبارات الثناء والعرفان لهم، وجزيل الشكر على التوديع، ويتعثر اللسان في النطق بكلمة الوداع، وتعجز الأصابع عن كتابة ألم الفراق، وأحرف التوديع، فلا أقول لهم إلاّ: شكراً جزيلاً (شكر خاص لك يا أبا يارا)، شكراً جزيلاً أحبابي في تبوك الورد، شكراً أصدقائي في مملكة الورد، شكراً زملائي في تبوك الجمال.

شكراً جزيلاً يا تبوك الجمال شكراً جزيلاً يا تبوك الورد على استقبالي، وشكراً على توديعي أستأذنك للخروج والانتقال للعيش إلى منطقة أخرى.

***

رحلتي ... لمدينة الأخدود الأثرية

مدينة الأخدود الأثرية في جنوب مدينة نجران في جنوب المملكة العربية السعودية ، تقع على الحزام الجنوبي من وادي منطقة نجران، والتي لم يتبقَ منها حالياً إلا قلعة بنيت من الحجارة، ويحيط بها سور بطول ٢٣٥م، وعرض ٢٢٠م، ولها بوابة من الجهة الغربية، وتمثل هذه القلعة الفترة الرئيسية للاستيطان حيث يرجع تاريخها كما ورد في بعض المراجع إلى حوالي عام ٥٣٥ ق.م[١]، والتي انتهت بنهاية القرن الثالث الميلادي .

وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم في سورة البروج : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾[٢].

تتلخص القصة حول قيام الملك يوسف ذو النواس الحميري بحرق سكان مدينة الأخدود قبل أكثر من ١٥٠٠عام عقاباً لهم على إيمانهم بالله، ولم يعلم عنهم أحد شيئاً حتى ورد ذكرهم في القرآن الكريم .

وتفاصيل تلك القصة يرويها لنا الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح: عَنْ صُهَيْبٍ، أَنّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ

(١) كتاب: نجران منطلق القوافل، تأليف: أ. د. عبد الرحمن الأنصاري .
(٢) سورة البروج، من الآية (١ ـ ٨) .

لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلامَهُ، فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ، وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ، فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ، فَأَخَذَ حَجَراً، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ، فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ ؟، قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟، قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلامِ، فَجِيءَ بِالْغُلامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَ تَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلامِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى

جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ، فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟، قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ، فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ، فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ: الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟، قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ ؟، قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلامِ ثُمَّ رَمَاهُ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ، فَمَاتَ، فَقَالَ: النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ، فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ، فَأَحْمُوهُ فِيهَا أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا: الْغُلامُ يَا أُمَّهْ اصْبِرِي، فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ»[1].

ورغم مرور فترة زمنية قديمة سبقت البعثة النبوية الكريمة، ما زالت العظام الهشة السوداء والرماد الكثيفة شاهدة على الحريق الهائل الذي أصاب أهل مدينة

(١) صحيح الإمام مسلم، رقم الحديث: ٥٣٣٢؛ باب قصة أصحاب الأخدود .

الأخدود بمنطقة نجران، وإلى الآن تَرْوِي تلك الأطلال وبقية المباني الضخمة وبقايا آثار الأخدود من الحجارة الضخمة والنقوش لزائرها قصة أصحاب الأخدود الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، وما حصل لهم من العذاب والإحراق لِيُصْرَفُوا عن دينهم .

وقد نُشِرَتْ بعض الصور لعظام بشرية باقية من آثار هذه المحرقة التاريخية، وصور أخرى لآثار الرماد وآثار العظام المتبقية حتى اليوم[١].

ويشير علماء الآثار في منطقة نجران إلى أن منطقة الأخدود الأثرية تحتاج إلى ما يقارب ٣٠ سنة لمعرفة جميع أسرارها، وإن ما تم اكتشافه إلى الآن لا يمثل إلا جزءاً من آثارها ومعالمها، وما زال يكتنفها الغموض والأسرار رغم عمليات التنقيب والحفر المتواصل التي استمرت لمدة عشر سنوات متتالية .

وتعد مدينة الأخدود في نجران من المواقع الأثرية الغنية والمهمة في شبه الجزيرة العربية، وأهم معلم حضاري، وسياحي، وتاريخي لمدينة نجران، وهي المدينة المذكورة في سورة البروج، والتي تحتوي العديد من الكتابات والنقوش على الأحجار يعود تاريخها إلى الفترة التي تلت الميلاد النبوي لنبي الله ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام وسبقت البعثة النبوية المحمدية لرسول الله محمد بن عبدالله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا تذكر نجران إلا وتذكر الأخدود وكذلك العكس[٢].

والزائر لهذه القلعة والآثار القديمة يعتبر ويتعظ بما يشاهده، فقد ضربوا أروع المثل في الصبر على الأذى، والثبات عند البلاء، والاستقامة على الدين رغم

(١) كتاب: قصة أصحاب الخدود، تأليف: د. مسفر اليامي، أستاذ مشارك بجامعة نجران. (بتصرف). .
(٢) كتاب: نجران ثقافة وتراث، من إعداد هيئة العامة للسياحة والآثار. (بتصرف).

ما يرونه أمامهم من الأخدود الموقد بالنيران ولهيبها وسعيرها .

وقد قمت برحلة لهذه المدينة الأثرية، رأيت بأم عيني تلك المدينة الأثرية القديمة التي كنت أسمع عنها فقط من الصفوف الأولية عندما حفظت سورة البروج، وكنت أتمنى رؤيتها والآن تحققت الأمنية ولله الحمد والمنة، فرأيت العجب في حجارة مبانيها الضخمة، وكذلك نقوشها بخط المسند، ورسومها التي لم يمحها مرور الزمن، وعباراتها التعبدية القديمة، كذلك رأيت آثار التنقيب على ما تحتضنه هذه القلعة من التراث، وكذلك قمت بزيارة متحف الأخدود والتقطت بعدستي بعض الصور داخل المتحف لبعض الأواني التراثية القديمة التي عثر عليها مدفونة داخل القلعة والمصنوعة من الفخار، كذلك التقطت عدة صور لقلعة الأخدود التراثية القديمة، وزودني الإخوان في المتحف وفقهم الله ببعض الكتب والمنشورات عن الآثار ومعالمها بمدينة الأخدود وغيرها من الآثار بمنطقة نجران.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

***

إمتاع النظر.. بقرية المقرّ

حث الله تعالى في كتابه العزيز على المشي في مناكب الأرض وجوانبها فقال: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥] ونوه بالسير فيها فقال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [العنكبوت: ٢٠]، لنرى عظيم صنع الله تعالى، ونتفكر في بديع خلقه، ونتأمل في معجزات كونه، ودلائل عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولنوقن أن الذي خلق الخلق وبدأه قادرٌ على إعادته.

فكان منها أن قمت برحلة سياحية عائلية لتغيير الجو، وقضاء إجازة ماتعة بعيداً عن أجواء العمل وما يحيط به، فكانت وجهتي إلى الديار الباردة صيفًا وشتاءً، تلك الديار التي تعلوها السحب المستمرة الممطرة، ديارٌ في جنوب المملكة العربية السعودية، كنت أسمع بها منذ الصغر ولم تتذوق عيني رؤيتها إلاّ في هذه الرحلة، فتفاجأت بطبيعتها الخلابة، وأبهرتني مناظرها الجميلة، وأدهشتني هذه الديار، ديار بني شهر تلك القبيلة الجنوبية المعروفة، تسير إليها من أبها فتستمر من صعود في صعود إلى أن تدخلها مسافة ساعتين أو أكثر لزحمة السياح في الطريق، تذكرت حينها أبيات الشاعر المعروف أحمد شوقي وصف الطبيعة:

تِلكَ الطَبيعَةُ قِف بِنا يا ساري ... حَتّى أُريكَ بَديعَ صُنعِ الباري
الأَرضُ حَولَكَ وَالسَماءُ اِهتَزَّتا ... لِرَوائِعِ الآياتِ وَالآثارِ
مِن كُلِّ ناطِقَةِ الجَلالِ كَأَنَّها ... أُمُّ الكِتابِ عَلى لِسانِ القاري
دَلَّت عَلى مَلِكِ المُلوكِ فَلَم تَدَع ... لأَدِلَّةِ الفُقَهاءِ وَالأَحبارِ
مَن شَكَّ فيهِ فَنَظرَةٌ في صُنعِهِ ... تَمحو أَثيمَ الشَكِّ وَالإِنكارِ

مدينة النماص ومدينة الضباب ومعشوقة السحاب، التي تقع في منطقة عسير على سلسلة جبال السروات ، وتتميز بالطبيعة وبكثافة الغطاء النباتي، وتقع على الخط الإقليمي (الطائف – أبها) وتبعد عن مدينة الطائف جنوبـًا (٤٥٠كم) وعن مدينة أبها شمالاً (١٥٠كم)، يصل ارتفاعها عن سطح البحر إلى أكثر من (٢٥٠٠متر)[١].

وأثناء ما أنا أسير فيها بسيارتي وأبحث عن أماكنها الأثرية وقراها التراثية وعن المتحف التراثي الأثري، اجهدني البحث عنها وذلك لعدم معرفتي بطرق المدينة وهي أول زيارة لها، ولا أمتلك خريطة سياحية لها، وبعد فترة طويلة من البحث وبالصدفة قبيل الظهر وجدت لوحة مكتوب عليها (قرية المقرّ التراثية).

فاتجهت معها فتفاجأت بما لم يكن في مخيلتي، مناظر لا يستطيع عقلي وصفها مناظر أنستني تعب ذلك اليوم كاملاً، بناءٌ في غاية الروعة والجمال، لم يسبق لعيني أن ترى هندسة معمارية مماثلة لها، سبحان من خلق الإنسان بعقليةٍ باهرة، فالمبدع الأول هو الله الذي أبدع كل شيء في بداية الخلق، وخلق الإبداع وأعطاه من شاء من عباده.

متع ناظريك بها، واروي منها عطشك للإبداع، وتأمل في العقل الذي وهبه الله تعالى لابن آدم، جدد نشاطك، سلِّ نفسك بما أباحه الله لك.

۞ قصر المقرّ ، أو القصر الفلكي:

عباره عن قرية تراثيه تحمل آلاف المخطوطات وآلاف القطع التراثية التي تعود إلى مئات السنين كما يحمل هذا القصر آلاف الزخارف الإسلامية كما يوجد بساحة القصر من الخلف شقق واستراحات لخدمه الزوار القادمين من

(١) النماص، من سلسلة هذه بلادنا ، تأليف عبدالله بن ظافر الشهري .

مناطق بعيده تطل على تهامة ويوجد به حديقة حيوانات واستراحة للزوار[١].

تعتبر هذه القرية التراثية أعجوبة من أعاجيب القرن الواحد والعشرين صاغتها عقلية هندسية تراثية في قالب سعودي، عقلية لم تنجح في صغرها، وإنما نجحت في كبرها.

وتعتبر قصة حضارة حفرها وأسسها وشيّد بنيانها ورسم قواعدها صاحب العقل المفكر والخيال الباهر (محمد المقرّ الشهري)[٢] صاحب القرية التراثية، استغرق أكثر من ٣٥ عاماً واستخدم في البناء أكثر من مليوني حجر طبيعي من جبال عسير بتكلفة تفوق الـ ٨٠ مليون ريال سعودي لتكون من شواهد براعة هذا الإرث التاريخي.

لها أكثر من ٢٠ واجهة تطلُّ للزائرين وأروقة محاطة بالحدائق المعلقة، التي ما زال العمل جارياً فيها تسقى من خلال قنوات وينابيع مياه استخدم فيها

---

(١) منتديات النماص .

(٢) نبذة مختصرة بتصرف عن مؤسس هذه القرية : يقول بلسانه (توفي والدي ولم أعرفه شخصياً، وتولى تربيتي أخٌ كان أتعس مني حظاً ، درست الصف الأول الابتدائي وبقيت فيه (٦ سنوات) دون أن أنجح، فاتجهت إلى رعي الأغنام والأبقار لأفراد قريتي ، بالرغم أن والدي كان رجل معروف في القرية، وكم كنت أتأثر عنما يسألني أحدهم بتعجب أنت ولد المقرّ؟ ومما زاد ألمي عثوري على رسالة مخطوطة بيد والدي فيها دعاء ، وكانت سبباً في جمعي لكل ما يقع تحت يدي من مخطوطات منذ صغر سني ، ولم أفكر إلاّ في جمعها فقط ، ولما ضاعت عليّ السبل ذهبت إلى تبوك والتحقت بالقطاع العسكري والتحقت بالدراسة وواصلت الثانوية ، وتعلمت اللغة الانجليزية والفرنسية ، ثم اتجهت إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وعدت ضابطاً في القوات المسلحة ، ثم لما منّ الله عليّ بالرزق تحققت رغبتي في السفر فزرت أكثر بلاد أوروبا وآسيا وافريقيا ورأيت الحضارات الإسلامية فأعجبت بها ، فتبلورت في رأسي هذه الفكرة ، وأصبحت أسافر لآخذ الأفكار ومشاهدة الحضارات ، حتى أسست هذه القرية الحضارية التراثية ، فخرجت فاشلاً من بلدي وعدت بفكرة قرية المقرّ للتراث والحضارات .

العناصر الزخرفية الرقيقة في قالب هندسيٍ فريد من تصميمه شخصياً، وزخارف من المعمار الأندلسي الذي يكسو الجدران، مطوقاً بالكيشاني المطرز بالنقوش العربية التي ذاع صيتها في الأندلس، والقصر صمم بطريقة تسمح للشمس بأن تدور حوله دورة كاملة على امتداد نوافذ القصر المتعددة، ولعل أهم ما يميز هذا القصر، القباب السبع، التي تمثل قارات العالم السبع وهناك أكثر من ٣٦٥ عموداً داخل القصر ممثلةً عدد أيام السنة تتشبع حيطانها بالحضارة الأموية والعباسية لتشكل حزاماً متناسقاً.

وتأتي الأدوار متخذة من الحقب والأزمنة التاريخية موضوعاً لها ليحل في مخيلتك امتداد عصور مختلفة في الماضي والحاضر ويحتوي الدور الأول والثاني على أكثر من (١٨) ألف قطعه تراثية.

فالأول يجسد حضارة الأندلس والعصر العباسي في فن الزخرفة والنقش، والثاني يختزل الحضارة الإسلامية من الصين شرقاً وحتى غرب أفريقيا، ليكتنز الدوران معاً ٢٠ ألف قطعة أثرية.

والثالث فيحتوي على سردٍ لتاريخ المخطوطات الإسلامية في الطب والفلك والرياضيات وعلوم الفرائض واللغة العربية والمذاهب الإسلامية.

ويعتبر القصر السجل الأول في التاريخ الإسلامي للمخطوطات المكتوبة باليد للقرآن الكريم، به أكثر من ألف مخطوطة للقرآن الكريم لألف عالم في ألف تاريخ مختلف[١].

❋❋❋

(١) الموسوعة الحرة، ويكيبيديا.

ثلاث وعشرون سنة

نبـيٌ أتانـا بعـد يـأس وفتـرةٍ من الرسل والأوثانُ في الأرضِ تعبدُ
فأمسـى سـراجًا مسـتنيراً وهاديـًا يـلـوحُ كما لاح الصقيلُ المهندُ

«ثلاث وعشرون سنة» غيّرت وجه التاريخ، وتغيّرت الأرض تغيراً جذريـًا بمن عليها وتبدّلت أحوالها، شيئـًا فشيئـًا حتى ساد فيها الأمن والرخاء والاستقرار والأخوة والمحبة، لينعم الناس بدينٍ صحيحٍ قويمٍ يكون به أمنهم وأمانهم بعد أن عاشوا في هوان الجاهلية وذلّ قوانينها وظلم أعرافها القبلية.

في هذه السنوات «الثلاث والعشرون» بدّل الله تعالى بحكمته ضلالات أهل الأرض المنتشرة في ماضيهم المحرّف بدينٍ رضيه لهم ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥] فقد اختار لهم هذا الدين العظيم وأنزل إليهم خير كتبه وأرسل لهم أفضل رسله، أصحُ العربِ عقلاً، وأسدّ رأيـًا، وأنقى فكراً، وأطهرُ قلبـًا، وأزكى رُوحـًا، وأكملُ البشرية سنَـًا وعقلاً وفكراً وقلبـًا وجعل على يديه الخير والسعادة الأبدية لهذه الأمة، وكانت هداية الناس على يديه فاتبعه من حوله.

في هذه السنوات «الثلاث والعشرون» وحدّ الجزيرة العربية دينٌ واحد لعبادة ربّ واحد، يحجون لبيتٍ واحد ويقفون في صلاتهم وقفة رجلٍ واحد، لملم شتات القبائل وأزال النعَرات القبلية السائدة بينهم وجعلهم أخوة متحابين كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضـًا.

في هذه السنوات «الثلاث والعشرون «تطهرتْ مكة المكرمة من رجس الأوثان وأهلها وهدمت أصنامُ قريش وألغيتْ قوانينها وأعرافها إلاّ ما وافقَ دين الإسلام وجُعلت حياتهم هدراً إلاّ بحق الإسلام.

في هذه السنوات «الثلاث والعشرون» كان نصفها الأول دعوة إلى التوحيد الخالص لله تعالى وحده ونبذ كل شريكٍ معه﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾ [سبأ: ٤٦] ولقيَ الأذى من قومه وقرابته وعشيرته، فاتهموه بالشعر والجنون والمرض والكهانة وقالوا له: «تبـًا لك سائر اليومِ ألهذا جمعتنا» وطردوه من مكة أحبُّ بلاد الله إليه ومسقط رأسه ووطنه الوحيد فخرج منها هائمـًا على وجهه إلى الطائف يستجير بقبائلها ليبلغ دين الله تعالى «**ألا رجلٌ يحمِلُني إلى قومِهِ لأبلِّغ كلام ربي فإنَّ قريشًا قد منعوني أن أبلِّغَ كلامَ ربِّي**»[١] فخاب ظنه فيهم فكذبوه ورجموه بالحجارة حتى أدموا قدميه وألّبوا عليه سفهائهم وغلمانهم، قال «**فلم أستفقْ إلا وأنا بقرنِ الثعالبِ**»[٢] عندما سألته زوجته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن أشدّ ما لقي من قومه.

فجاءه الفرج من الله تعالى بعد أن رفع كفيه إلى السماء يستجير بربه مما لقي، ولكن نبي الرحمة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان رحيمـًا في ذلك الموقف العصيب «**بل أرجو أن يخرجَ اللهُ من أصلابِهم من يعبدُ اللهَ وحدَه ، لا يشركُ به شيئًا**»[٣] فحقق الله له ما تمنى.

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل (٣/ ٣٨٠)، خلاصة حكم المحدث : ثابت.

(٢) صحيح البخاري (٣٢٣١).

(٣) صحيح مسلم (١٧٩٥).

وعاش حياته منذ بدأ الرسالة في مكة المكرمة يتيماً شريداً طريداً يستجير بالقبائل لحمايته ويتخفى بدين الله مع قلّة ممن تبعه، ويتلقى أوامر الله تعالى ورسالاته ويسليه ربه بحال الأنبياء السابقين مع أقوامهم وأنه لن يحيد عنهم «**أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ**»(١) وكان صامداً لا يلين لإغراءات كفار قريش وتهديدهم لأنه علم يقيناً أن الله ناصره مهما ادلهمت عليه الخطوب وضاقت به الأرض بما رحبت.

ورغم ما لقي من الأذى والعنت من قومه كان يدعو لهم بالهداية والمغفرة وكان يقول «**اللهمَّ، اغفِرْ لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**»(٢) فاختار الله من قومه رجالًا لا يخافون في الله لومة لائم فدوه بأنفسهم وأموالهم وأبنائهم فجعلهم خيرة خلقه بعد الأنبياء وسخرهم لنصرة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستقرّ الدين في نفوسهم وخالط أرواحهم.

في هذه السنوات «الثلاث والعشرون» بلغ عمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خمسون عاماً فجاءته معجزة من الله عظيمة، اختصه الله بها دون غيره، حيث تشرّف بمخاطبة الله تعالى من عنده لما أسري به وعرج به إلى السماء في جزء من ليلة واحدة، وقريشٌ تمضي شهراً مصعداً إلى القدس وترجع شهراً منحدراً، ووصف لهم بيت المقدس كأنه ماثلٌ أمامهم، فهو بشرٌ مثلنا لكن الله اختصه بالرسالة والوحي والعصمة ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] وعاد إلى مكة يحملُ الصلوات المفروضة معه وبقي في مكة بعدها ثلاثُ سنوات يعلمها الناس ويبين لهم عظمتها عند الله تعالى وأنها الصلة

(١) صحيح البخاري (٤٩٥٣).
(٢) صحيح البخاري (٣٤٧٧).

العظيمة بين الله وخلقه وتفريق بين المسلم والكافر وعهده الموثوق.

ثم انتهت السنوات «الثلاث عشرة» الأولى من نبوته في مكة داعياً ومعلماً ومرشداً ومحذراً الناس ومبشراً لهم؛ التي تخللها كثيرٌ من الأفراح والأتراح في حياته النبوية؛ غير ما عاشه من المصائب قبل نبوته وبداية الوحي.

في هذه السنوات «الثلاث والعشرون «أتت المرحلة الثانية في حياته وهجرته إلى المدينة النبوية، حيث أذن الله له بالهجرة إلى المدينة التي اختارها الله ليعيش فيها بقية حياته لتكون منطلق دعوته ورسالته ويموت فيها، إنها طيبة الطيبة هاجر إليها مشياً على الأقدام مع صاحبه وخليله أبا بكر الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وليست سفراً من الأسفار، بل رحلة عظيمة مشاها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحمل العبء الثقيل الذي ألقاه الله على عاتقه، ويحمل المهمة الكبرى، رحلة بدأت بـ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] حيث انبلج بها الفجر وانتهى الظلام، فكانت بداية الزحف المجيد على الكفر وأهله، حيث غمر نصف المعمورة بهذا النور الإلهي العظيم وسيمتد إلى آخر الزمان، ولما وصل المدينة بعد أيام طالت على أهلها وهم في ترقبٍ وانتظار طويل وفرحٌ شديد. . كما قال شاعرهم:

يومٌ يتيهُ على الزمانِ صباحه ... ومساؤهُ بمحمدٍ وضّاءُ

فقد أمسى ذلك اليوم أفضل أيام الدنيا، وأفضل أيام المدينة على أهلها واجتمع حوله الناس والرجال والنساء والأطفال ينشدون فرحاً بمقدمه وشوقاً لرؤيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لينزل تلك الليلة ضيفاً شريفاً بدار أبي أيوب الأنصاري الذي كتب الله أن يحضر - بَعدُ - حرب القسطنطينية وأن يموت في أبعد مكان

عن المدينة ويدفن على ضفاف البوسفور، ثم أسس له مسجداً في مَبْرَكِ ناقته القصوى ليكون نقطة بدايته ونشر دعوته، ومكان اجتماعهم وتآخيهم وتآلفهم وتعليمهم لأنهم كانوا قبائل شتى وأمم متفرقة متناحرة فجعلهم أمة واحدة بفضل الله وحكمته ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٣]، لأن رؤيته عَلَيْهِ السَّلَامُ أن المسجد منطلق كل شيءٍ في الحياة، فكانت نقطة التحول في التاريخ الإسلامي العظيم.

في هذه السنوات «الثلاث والعشرون» بدأت العشر الأخيرة من حياته – فداه أبي وأمي – عاش فيها أفضل أيامه ورونقها فكانت تحيطه الرجال المخلصة والسيوف المصلتة والرماح المجهزة والصدور المقدمة، فاجتمع حوله الرجال من أفضل أصحابه وأكابرهم، ثم تتابعت عليه بقية الشرائع والأوامر، وعاش النصر المبين في غزواته وفتوحاته، نصره وأصحابه في بدر، ولقّنهم درساً في أُحُدْ لمخالفتهم أمر قائدهم، وعاتبهم في حُنين لفرحهم بكثرتهم، ونصره الله بالرعب مسيرة شهر وأعطاه الله الغنائم وأيّدَه المعجزات وفقدَ كثيراً من أصحابه، وحزن على فقدِ عمه حمزة، وأصيب برباعيته وشق وجهه واتهم في عرضه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصره الله على اليهود الخائنين للعهود والمواثيق، ونشر الله به الدين وأتم له الرسالة بين العالمين، وأتت القبائل برجالها مسلمة طائعة لله، واستتم نزولُ القرآن الكريم في هذه السنوات «الثلاث والعشرون».

في هذه السنوات «الثلاث والعشرون» أكمل الله به الدين وختمه وارتضى لهم الإسلام ديناً إلى قيام الساعة، وجعله الدين الخالد الذي لا يزول ولا يذهب أبداً

مهما تداعت عليه الأمم وتوالت عليه الخطوب ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وبعد أن توالت الانتصارات وأزهق الله الكفر وأهله والباطل وحزبه، وانتصر الحق المبين بنصر الله تعالى، وفرح المسلمونَ فرحًا شديداً بنصر الله، ولكن آن لهذا الفرح أن يكتمل ويدوم، وهيهات للبدر إن اكتمل أن يبقى بدراً، فقد أمره الله تعالى بكثرة الاستغفار والتوبة وانتظار أمر الله إليه بالرحيل، وخيّر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الخلد في الدنيا والجنة وبين لقاء ربه والجنة، فاختار رسول الله لقاء ربه والجنة.

ولما اختار أن يلحق بالرفيق الأعلى أخبر أصحابه فبكى منهم من بكى وعم الحزن جنبات المدينة حتى أظلم فيها كل شيء، وقبض يوم الاثنين بعد ثلاث وعشرون سنة مرّت من حياته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاشها نبيًا رسولا، فجثى عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على ركبتيه يبكي فراق رسولِ الله بعد أن تلا عليهم أبا بكر الصديق ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] .. فبلغ بهم الحزن مبلغًا عظيمًا، ووصل بهم أن بعضهم كذّب بخبر وفاته فعم الجزيرة حزنٌ من هول المصاب، فإذا أصبت بمصيبة فتذكر مصابك بالنبي محمد فهي أعظم مصيبة مرّت على الأمة الإسلامية، فتفرق بعض أصحابه في الأمصار ولم يطب لهم المقام بالمدينة بعد وفاة رسول الله نورها وضياؤها وبهجتها وسرورها وانقطاع وحيها وتوقف نزول آياتها.

فيعجزُ مقالي ويعجزُ قلمي أن يسطر حياةً كاملة وبطولة رجلٍ قام وحده لإصلاح الدنيا وقامت في وجهه الحروب الطاحنة، وتنكر له العالم كله ومع ذلك تغلّب عليه، وقد عجزتْ قبل ذلك كتبُ التاريخ في تسطيرها، ولكن نحاول أن

نذكر شيئًا مما نتذكره ونسطره بأقلامنا ليكون لنا شاهداً عند الله يومَ نلقاه.

فَبُورِكتَ يا قبرَ الرّسولِ وبورِكتْ ... بِلاَدٌ ثَوَى فيهَا الرّشِيدُ المُسَدَّدُ
وَبُورِكَ لَحْدٌ منكَ ضُمّنَ طَيّبًا ... عَليهِ بناءُ من صفيحٍ مُنَضَّدُ
تَهِيلُ عَلَيْهِ التَرْبَ أيْدٍ وأعْيُنٌ ... عليهِ وقدْ غارَتْ بذلِكَ أسْعُدُ
لقد غَيّبوا حِلْمًا وعِلْمًا وَرَحمةً ... عَشِيّةَ عَلّوْهُ الثّرَى لا يُوَسَّدُ
وَرَاحُوا بحُزْنٍ ليس فيهِمْ نَبيُّهُمْ ... وَقَدْ وَهَنَتْ منهُمْ ظهورٌ وأعضُدُ
يُبكّون مَنْ تَبكي السَّماوات يَوْمَهُ ... وَمَنْ قدْ بَكَتْهُ الأرْضُ فالناس أكمَدُ
وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْمًا رَزِيّةُ هَالِكٍ ... رَزِيّةَ يَوْمٍ مَاتَ فِيهِ مُحَمّدُ

فلنا أن نتخيل هذه السنوات «الثلاث والعشرون» ماذا تخللها من أمور عِظامْ، فختم الله به الرسالات وجعله شاهداً على من قبله من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فمات وعمره (٦٣ سنة) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما نعيش فيه هذه الأيام من نعمة الدين من نتائج هذه السنوات «الثلاث والعشرون» التي جاهد فيها بكل ما معه حتى نصره الله ونشر به الدين القويم. . فالحمد لله أولاً وآخراً.

❊❊❊

بين الصدّيق والفاروق

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اختار لصحبة نبيه رجال زكاهم وعدّلهم ورضي عنهم بقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ﴾ [الحديد: ١٠].

وبقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

وبقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تسبوا أصحابي. لا تسبوا أصحابي. فوالذي نفسي بيدِه! لو أن أحدَكم أنفق مثلَ أحدٍ ذهبًا، ما أدرك مدَّ أحدِهم، ولا نصيفَه**»(١).

فهذه تزكية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه رضوان الله عليهم.

عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال «إنَّ اللهَ نظر في قلوبِ العبادِ فاختارَ محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبعثهُ برسالتهِ ثم نظرَ في قلوبِ العبادِ فاختارَ له أصحابا فجعلهُم أنصارَ دِينِهِ ووزَراءَ نبيهِ، فما رآهُ المسلمونَ، حسنا فهو عندَ اللهِ حسَنٌ، وما رآه المسلمون قبيحًا فهو عندَ اللهِ قبيحٌ»(٢).

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٤٠).

(٢) كشف الخفاء (٢/ ٢٤٥).

وأفضل رجلين في هذه الأمة من الصحابة بعد رسولها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خليفتاه من بعده، هما أبا بكر الصديق وعمر الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وعن صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجمعين، فتجب محبتهما والترضي عنهما والاقتداء بهما وعدم بغضهما.

روى أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**هذانِ سيِّدا كُهُولِ أهلِ الجنةِ ، من الأوَّلينَ والآخِرينَ، إلَّا النبيِّينَ والمرْسلِينَ، لا تُخبِرْهُما يا عليُّ . يعني أبا بكرٍ وعُمَرَ**»(١).

وعن بشر بن الحارث يقول: «قلت لمالك بن مغول: أوصني.

قال: أوصيك بحب الشيخين: أبي بكر وعمر.

قلت: أوصني.

قال: أوصيك بحب الشيخين: أبي بكر وعمر.

قلت: إن الله أعطى من ذلك خيراً كثيراً؟

قال: أي لكع، والله إني لأرجو لك على حبهما ما أرجو لك على التوحيد»(٢).

وقيل للحسن: حب أبي بكر وعمر سنة؟ قال: «لا، فريضة»(٣).

وعن مسروق قال: «حب أبي بكر وعمر ومعرفة فضلهما من السنة»(٤).

فقد سماهما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أبو بكر (بالصديق) لأنه أول من

---

(١) صحيح الجامع (٧٠٠٥)، خلاصة حكم المحدث : صحيح.
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٧/ ١٢٤٠).
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٧/ ١٢٣٩).
(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٧/ ١٢٣٩).

صدّق به، وعمر (بالفاروق) لأن الله فرّق به بين الحق والباطل، وهما (العمران) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فلهما مكانة عظيمة عند الله تعالى فقد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورضوا عنه، ولهما مكانة عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويكفيهما شرفًا أنهما أول من بشرهما بالجنة رضوان الله عليهما، وهما أفضل الأربعة الخلفاء – الصديق ثم الفاروق ثم ذي النورين ثم أبو السبطين – رضوان الله عليهم أجمعين ولا خلاف في ذلك.

وعن حذيفة ابن اليمان قَال: قَال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقتدوا باللّذينَ من بعْدِي أبي بكرٍ وعمرَ**»(١).

ويقول القحطاني في نونيته(٢):

وأجلُّ صحب الرسل صحبُ محمدٍ ... وكذاك أفضلُ صحبهِ العمرانِ
رجلانِ قد خلقا لنصرِ محمدٍ ... بدمي ونفسي ذانك الرجلانِ
فهما اللذان تظاهرا لنبينا ... في نصره وهما له صهرانِ
بنتاهما أسنى نساءِ نبينا ... وهُمَا له بالوحي صاحبتانِ
أبواهما أسنى صحابة أحمد ... يا حبذا الأبوان والبنتانِ
وهما وزيراه اللذانِ هُما ... هما لفضائل الأعمالِ مستبقانِ
وهما لأحمد ناظراه وسمعه ... وبقربه في القبر مضطجعانِ
كانا على الإسلام أشفقَ أهله ... وهما لدينِ محمدٍ جبلانِ
أصفاهما أقواهما أخشاهما ... أتقاهما في السر والإعلانِ

(١) سنن الترمذي (٣٦٦٢)، خلاصة حكم المحدث : حسن.
(٢) قصيدة الإمام أبي محمد الأندلسي القحطاني المشهورة ، توفي ببخارى سنة ٣٧٩هـ .

أسناهما أزكاهما أعلاهما أوفاهما في الوزن والرجحانِ
صدّيقُ أحمد صاحب الغارِ الذي هو في المغارة والنبي اثنانِ
أعني أبا بكر الذي لم يختلف من شرعنا في فضله رجلانِ
هو شيخ أصحاب النبي وخيرهم وإمامهم حقًا بلا بطلانِ
وأبو المطهرة التي تنزيهها قد جاءنا في النور والفرقانِ
أكرم بعائشة الرضى من حرّة بكر مطهرة الإزار حصانِ
هي زوج خير الأنبياء وبكره وعروسه من جملة النسوانِ
هي عرسه هي أنسه هي إلفه هي حبه صدقًا بلا أدهانِ
أوليس والدها يصافي بعلها وهما بروح الله مؤتلفانِ
لما قضى صديق أحمدَ نحبه دفع الخلافة للإمامِ الثاني
أعني به الفاروق فرّق عَنوة بالسيف بين الكُفر والإيمانِ
هو أظهرَ الإسلام بعد خفائه ومحا الظلامَ وباح بالكتمانِ
ومضى وخلى الأمر شورى بينهم في الأمرِ فاجتمعوا على عثمانِ

۞ ماذا حدث بين الصديق والفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

هذه القصة يرويها الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في صحيحه من حديث الصحابي الجليل أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيقول: كانت بين أبي بكرٍ وعُمَرَ محاورةٌ، فأغضَب أبو بكرٍ عُمَرَ، فانصَرَف عنه عُمَرُ مُغضبًا،فاتَّبَعه أبو بكرٍ يَسأَلُه أن يستغفِرَ له فلم يَفعَلْ، حتى أغلَقَ بابَه في وجهِه، فأقبَل أبو بكرٍ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقال أبو الدَّرداءِ: ونحن عِندَه،فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما صاحبُكم هذا فقد غامَر**». قال: ونَدِم عُمَرُ على ما كان منه،فأقبَل حتى سلَّم وجلَس إلى النبيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقصَّ على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخبرَ. قال أبو الدَّرداءِ: وغضِب رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجعَل أبو بكرٍ يقولُ: واللهِ يا رسولَ اللهِ، لأنا كنتُ أظلَمُ. فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل أنتم تاركونَ لي صاحِبي، هل أنتم تاركونَ لي صاحِبي، إني قلتُ: يا أيُّها الناسُ، إني رسولُ اللهِ إليكم جميعًا، فقلتُم: كذَبتَ، وقال أبو بكرٍ: صدَقتَ**»(١).

فإن حدث خلاف بينهما فليس مبرراً في القدح فيهم، كما يفعل البعض والله المستعان.

فعن أبي الأحوص قَال: سمعت عبد الله بن مسعود يُحَدّث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال: «**لوْ كنتُ متخذًا خليلًا لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلًا ، و لكنَّهُ أخي وصاحبي ، وقدْ اتخذَ اللهُ صاحبَكُم خليلًا**»(٢).

وعن سعد بن أبي وقَاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك**»(٣).

فهذين الرجلين والصحابيين الجليلين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لهما فضائل أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر، فالله قد رفع قدرهم وأثنى عليهم في محكم التنزيل وشهد لهم بالإسلام والإيمان والإحسان وبشرهم بالتوبة والرضوان وما أعده لهم بالجنان، نسأل الله أن يحشرنا معهم ويجمعنا بهم في جنته، ولا يجعل في

(١) صحيح البخاري (٤٦٤٠).
(٢) صحيح الجامع (٥٢٩٨) خلاصة حكم المحدث : صحيح.
(٣) صحيح البخاري (٣٦٨٣).

قلوبنا غلاً لهم.

واجعلنا من أهل هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠].

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

***

خامس الخلفاء الراشدين

الحمد لله الذي جعل لنبيه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خلفاء راشدين عادلين من أصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، والصلاة والسلام على نبيه ومصطفاه من خلقه وعلى صحابته الغرّ الميامين وآل بيته الطاهرين.

قرأنا وحفظنا هذا الحديث القصير، قول رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الخلافةُ في أمَّتي ثلاثونَ سَنةً ، ثمَّ مُلكٌ بعدَ ذلِكَ**»(١).

قال الإمام الحافظ في الفتح: والمراد به خلافة النبوة(٢).

وقال القاضي: المراد بها الخلافة التي لا يشوبها ملك بعده.

وقال ابن أبي العز: كانت خلافة أبي بكر سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر عشر سنين ونصفاً، وخلافة عثمان اثنتي عشر سنة، وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر، وخلافة الحسن ستة أشهر، وأول ملوك المسلمين معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو خير ملوك المسلمين(٣). اهـ

لما استشهد الخليفة الرابع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقتل أحد الخوارج له وهو عبدالرحمن بن عمرو المرادي في شهر رمضان لسبع عشرة ليلة خلت منه سنة أربعين للهجرة النبوية(٤)، بويع بالخلافة بعده ابنه الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واستمر خليفة

---

(١) صحيح الترمذي (٢٢٢٦).
(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز، ص (٥٤٥) .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٧ / ٣٨٧) .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير .

على الحجاز واليمن والعراق وخراسان وغير ذلك نحو ستة أشهر وكانت خلافته هذه المدة خلافة راشدة حقه لأن تلك المدة كانت مكملة لمدة الخلافة الراشدة التي أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن مدتها ثلاثون سنة ثم تصير ملكـًا.

وقال ابن كثير: وتكميل الثلاثين بخلافة الحسن بن علي نحواً من ستة أشهر حتى نزل عنها لمعاوية عام أربعين[١]. اهـ

ولم يكن في الثلاثين بعده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن وقد قرر جمع من أهل العلم عند شرحهم لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الخلافة في أمتي ثلاثون سنة) أن الأشهر التي تولى فيها الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعد موت أبيه كانت داخلة في خلافة النبوة ومكملة لها.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (والدليل على أنه أحد الخلفاء الراشدين الحديث الذي أوردناه في (دلائل النبوة) من طريق سفينة مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الخلافةُ بعدي ثلاثونَ سَنةً ثمَّ تكونُ مُلكًا**»[٢] وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي)[٣].

وقال المناوي بعد ذكره لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ ابنِي هذا سيدٌ ، ولعَلَ اللهَ أنْ يُصْلِحَ بهِ بينَ فِئَتَينِ عَظِيمَتَينِ من المسلمينَ**»[٤]. قال: (وكان ذلك، فلما بويع له بعد أبيه وصار هو الإمام الحق مدة ستة أشهر تكملة للثلاثين سنة التي أخبر المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنها مدة الخلافة وبعدها يكون ملكـًا عضوضـًا)[٥].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٨ / ١٧) .

(٢) صحيح ابن حبان (٦٩٤٣)، خلاصة حكم المحدث : أخرجه في صحيحه.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي المتوفى سنة ١٠١٣هـ رحمه الله .

(٤) صحيح البخاري (٢٧٠٤).

(٥) موسوعة الحسن والحسين ، حسن الحسيني (أول موسوعة علمية موثقة عن ريحانتي رسول الله) .

فقد يعجب البعض من هذا الكلام؛ لأننا قد تعودنا على سماع إطلاق لقب خامس الخلفاء الراشدين على الخليفة الأموي (عمر بن عبدالعزيز) رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهذا اللقب أطلقه بعض المؤرخين وأهل السير مجازاً، لأنه اشتهر بالعدل في نفسه وأهله وقومه، وقد اجتهد عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السير على نهج الخلفاء الأربعة.

تولى عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحكم سنة ٩٩ هـ. وقد كان عادلاً عالمـًا ورعـًا زاهداً، وقد سماه كثير من العلماء الخليفة الخامس لأنه جاء في زمن ابتعد الولاة فيه عن الهدي النبوي في الحكم وعن سيرة الخلفاء الراشدين فجدد مسيرتهم، أو لعله لقلة فترة خلافة الحسن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولاضطراب أمر المسلمين في هذه الفترة.

وخلاصة ما تقدم أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن خلافة الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهما كانت خلافة حقة وأنها جزء مكمل لخلافة النبوة التي أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن مدتها ستكون ثلاثين سنة وكذلك كانت كما أخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأنه خامس الخلفاء الراشدين وليس الإمام عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي معلومة خاطئة نسمعها ونحفظها لأنها ترسبت في أذهاننا مع معلومات أخرى.

فمن هو هذا الخليفة الخامس هو أحد سبطي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو سيد شباب أهل الجنة، عن البراء ابن عازب قال: رأيتُ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحسنَ بنَ عليٍّ على عاتِقِه، يقولُ: «**اللهم إني أُحِبُّه فأَحِبَّه**».

ولد في النصف من شهر رمضان عام ٣ هـ، واستشهد سنة ٥٠ هـ، ودفن في البقيع.

فهو من الشخصيات التي لن ينساها التاريخ «الحسن بن علي» خامس الخلفاء الراشدين تنازل عن الحكم بعد ٦ أشهر لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حقنا لدماء المسلمين وحفاظاً على وحدة المسلمين وتماسكهم.

كان حريصًا على المسلمين وعدم تفرقهم، وفي عهده كادت أن تندلع الحرب بينه وبين معاوية وأنصاره من الشام؛ فتنازل عن الخلافة، لتكون الخلافة واحدة في المسلمين جميعاً، ولإنهاء الفتنة وإراقة الدماء. فلما تنازل عن الخلافة أصلح الله بذلك بين الفئتين كما أخبر بذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال: «**إنَّ ابني هذا سيدٌ ، ولعَلَ اللهَ أنْ يُصْلِحَ بهِ بينَ فِئَتَينِ عَظِيمَتَينِ من المسلمينَ**»[1]. وسمي العام الذي تنازل فيه الحسن عن الخلافة لمعاوية بعام الجماعة.

اللهم وفقنا لطاعتك، واجمع كلمة المسلمين على الحق والتقوى، وأيد بالحق إمامنا وولي أمرنا، اللهم وفقه وإخوانه وأعوانه، وسدد على الخير خطاه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

❊❊❊

(١) صحيح البخاري (٢٧٠٤).

إمامٌ في محنته

عُرِفَ الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ باتباعه لمنهج السلف الصالح حيث كان تلميذاً نجيباً وذكياً للإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكان رحّالة في طلب العلم الصحيح والحديث النبوي، سافر إلى البلدان على قدميه من أجل حديث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى حفظها وجمعها في كتابه العظيم وطبع في ستة مجلدات كبار وهو من أمهات الكتب والصحاح المسمى (مسند الإمام أحمد) فهو أصلٌ كبير ومرجع وثيق لأصحاب الحديث، واحتاط فيه ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ إسناداً ومتناً ولم يورد إلاّ ما صح عنده من الأحاديث فجزاه الله عنا خير الجزاء.

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأنه أحسن انتقاءً وتحريراً من الكتب التي لم يلتزم مصنفوها الصحة في جميعها. .».

فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ متمسكاً بنصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية وإجماع الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، واتبع القياس في الضرورات فقط، فكان شديد التمسك بأدلة التشريع، تاركاً الرأي والقياس خلف ظهره، فهو صاحب المذهب «الحنبلي» أحد المذاهب الأربعة.

فقد أثنى عليه العلماء من مشايخه وطلابه ومن جاء بعدهم لما رأوا فيه من النباهة والنجابة والذكاء وقوة الذاكرة، وحرصه على طلب العلم الصحيح وحفاظه على الوقت، فلا يفرط في شيء منه.

قال عنه الشافعي: «خرجتُ من بغداد، وما خلّفت بها أفقه من ولا أروع ولا أزهد ولا أعلم من الإمام أحمد».

وقال الدار قطني: «مات الثوري ومات الورع، ومات الشافعي وماتت السنة، ويموت ابن حنبل وتظهر البدع».

وقال يحيى بن معين: «أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا والله! ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد، ولا طريقة أحمد».

وقال أبو زرعة: «ما رأت عيني مثل أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ».

وقال الذهبي: «الإمام أحمد عالم العصر، زاهد الوقت، محدث الدنيا، مفتي العراق، عالم السنة، باذلٌ نفسه في المحنة، وقلّ أن ترى العيون مثله، كان رأسًا في العلم والعمل. .».

جاء في كتاب «المقفى» للمقريزي أن الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو في مصر رأى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام فأخبره (أن المحنة ستكون وأن الإمام أحمد بن حنبل سيُمتحن) قال الربيع بن سليمان فكتب الشافعي كتابًا وختمه، ثم قال لي: يا أبا سليمان انحدر بكتابي هذا إلى العراق، واذهب بكتابي هذا إلى الإمام أحمد وأعطه ولا تقرأه، فحملت الكتاب إلى العراق، ووجدت الإمام أحمد يصلي سنّة الفجر فلما انتهى من الصلاة قدمت له الكتاب فعرفني وقرأه، فلما جاء عند موضع فيه، بكى، قلت له: ما يبكيك يا أبا عبدالله؟ قال لي: الشافعي يذكر لي أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشره أني سأُمتحن!! وأسأل الله أن يكون ذلك قريبًا.

قال الربيع: فقلت للإمام أحمد: هذه بشرى فأين جائزتي؟ فخلع الإمام أحمد ثوبه الذي يلي جلده وأعطاه لي، فلما رجعت إلى مصر رويت ما حدث للإمام الشافعي، فوجدت الشافعي يتمنى لو ظفر بثوب الإمام أحمد رحمة الله عليهم أجمعين.

فكان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجلُ علم ودين، ليس له يدٌ ولا نصيبٌ في السياسة والقضاء، ولم ينشأ في بيت السلطان، ولم يتنعم في بيت غنى وترف، وإنما عاش فقيراً معدماً رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكنه يتصف بصفات الخير والعطاء والجود والكرم، وكان يتصف بالورع والحفاظ على التمسك بالسنة النبوية، قوياً في محاربة البدعة، شديداً على أعداء الدين والملة من المعتزلة وأعداء أهل السنة.

كان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يواجه فتنةً وفكراً خبيثاً يتستر أصحابه خلف السلطان ليقوى نشره بين الناس والعامة، وكانت هذه الفتنة الخبيثة هي فتنة «خلق القرآن» والقرآن الكريم غير مخلوق فإنما هو كلام الله تعالى منه نزل وإليه يعود.

وقد كان السلف من الناس لم يعرفوا الكلام عن خلق القرآن العظيم حتى ظهرت فرقة المعتزلة فتكملوا فيه وأطالوا الكلام، فقد نبتت هذه الفكرة الخبيثة على يد الجعد بن درهم الذي ضحى به خالد القسري يوم عيد الأضحى عام ١٢٨هـ.

ثم رفعت هذه الفتنة رأسها واستشرفت الناس، وطالت كل عالم من العلماء وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ فتصدى لها ولأصحابها وقادتها من المعتزلة، بنفس ثابتة بعقيدتها وقوية بإيمانها ومتعلقة بربها ووعده ﴿وَلَيَنصُرَنَّ

ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج: ٤٠] فلقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما لقي من الأذى والسجن والتعذيب والإهانة في سبيل الله تعالى، وحَسْبُه في ذلك أنّ قدوته رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام حيث عانوا في سبيل الله الكثير من الأذى لنشر دين الله في الآفاق.

فكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ «إماماً في محنته» يعلم الناس الخير وقدوة لهم، ويحذرهم البدعة ويحثهم على التمسك بالسنة، وهو في هذه المحنة التي لم يصبر عليها إلاّ العلماء القليل أمثاله، ويدعو ربه الثبات والنصر.

فقد عاصر ثلاثة من سلاطين الدولة العباسية، وتعاقبوا على سجنه وتعذيبه وأذيته وإهانته، وأحاطت به الفتنة الفاتنة إحاطة السوار بالمعصم ومعها سيف السلطان وذهبه، ورَغَبُهُ ورَهَبُه، تريد أن يقول في كتاب الله ما ليس فيه وما ليس له به علم، وما لم ينزل به الله سلطاناً فرفض أن يخوض مع الخائضين، وثبت أمام هذه التحديات العاصفات الجوامع بصبر جليد وعزم شديد، لا يلقاها إلاّ أصحاب الإيمان الراسخ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، أولئك الذين لا تهن عزائمهم في المصائب ولا تلين شكائمهم في المصاعب ولا تنحني هاماتهم للنوائب.

فكان يعلم الناس الصبر ويوصيهم بطاعة السلطان وولاة الأمور وهو تحت سيفه وسوطه، ولم يُذكر عنه أنه نادى أو تكلّم بالخروج على السلطان أو لمّح بذلك، لأنه يعلم العواقب الوخيمة وأنّ يوماً بلا سلطان يجرّ الويلات والنكبات على البلاد، وأن بوجود السلطان حفظ الأمن والإيمان وسلامة الأوطان ورخائها، وعلمهم أن الدنيا دار فناء وأن الفتن اختبار من الله لعباده، وهو كالجبل الشامخ لا يضرّه شيء وثابتٌ على مبدأه الذي رسمه له دينه القويم، ولم يتوانَ أو يتراجع في ذلك.

وعلّمهم التسامح إلاّ في الدين وسامح خصومه وعفا عنهم ودعا لهم بالخير وهم الذين ألبوا السلطان عليه ويسعون لقتله بأقل ثمن، وكان يقول لولده عبدالله – رحمة الله عليهما – أشهدك أني عفوت عنهما ودعوت لهما، وكان اثنين من أشد خصومه يحرضان السلطان على قتله.

فكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ مدرسة في الأخلاق واتباع السنة وهدي السلف الصالح وكان عظيم الصبر والاحتساب لله، كثير الذكر والدعاء وقراءة القرآن الكريم والبكاء من خشية الله تعالى، وأكثر ما حُفظَ عنه في محنته وهو يجلد قوله: «اللهم إن كنت تعلم أني على الحق فلا تهتك لي ستراً»، حتى لا تتقطع ملابسه وتسقط وتظهر عورته للناس من شدة الضرب الذي يلقاه من الجلادين.

فكان يلقى أشد أنواع التعذيب والإهانة ليذلوه أمام أتباعه أهل السنة والجماعة، فكان الله يرفع ذكره ويقوي أزره ويثبت أقدامه وينصره على أعدائه وخصومه، رغم تراجع البعض عن رأيهم وموافقتهم للمعتزلة في القول بخلق القرآن، فكان إمام أهل السنة والجماعة وأتباعه لا يخالفون أقواله وأفعاله المستندة من الوحيين.

قام الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بنشر العلم في سجن بغداد وطرطوس، وكانت تقام له المناظرات مع خصومه على ملأ من الناس وهو مقيّد ومكبل في الحديد ومع ذلك يدحض شبهاتهم بالحجج والبراهين القاطعة، ويستغل ذلك في نشر الدين والسنة بين الناس، فكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوي الحجة والبرهان حتى أعجب به المعتصم وكاد يطلق سراحه لولا خصومه من المعتزلة وتحريضهم عليه.

فقد لقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سجنه ومحنته العذاب والتنكيل، ومع ذلك صبر فكان «إماماً في محنته» لا يتراجع عن أقواله ويجادلهم بالتي هي أحسن مدعومة بالأدلة والبراهين الجلية الواضحة.

وكان يقول عندما يضرب ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة: ٥١] ويكثر من قول "القرآن كلام الله غير مخلوق" ليغيض خصومه بقول الحق، ويقول مرّة للخليفة "يا أمير المؤمنين إنك موقوف ومساءل عني بين يدي ربّ العالمين، ربٌّ لا يظلم ويأخذ المظالم من الظالم، وتذكر وقوفك بين يدي الله كوقوفي بين يديك لا تستطيعُ منعاً ولا دفعاً.

فقد كان الإمام أحمد مدرسة في الزهد ويدل على ذلك كتابه "الزهد" مع فقره وحاجته، وكان مدرسة في الفقه، ولم يقبل من السلطان شيئاً بعد خروجه من المحنة، ولم يرضَ بالبقاء مع من له صلةٌ بالسلطان وكان يقول: البقاء معهم فتنة وسوف تفتح لنا الدنيا حتى تهلكنا وتلهينا عن الآخرة.

فقد أعزه الله تعالى بعد أن مكث في هذه المحنة أعواماً عديدة ولقي فيها العنت وأنواع التعذيب حتى منع من صلاة الجمعة والجماعة مع المسلمين صابراً محتسباً متذكراً بشرى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له بهذه المحنة العظيمة، وكان يصوم الأيام ويقوم الليالي المتعددة ويعبد ربه ويناجيه ويتضرّع إليه، ولا يفكر في محنته وخصومه وما يضمرون له طرفة عين، لأنه يعلم أن هذه المحنة خيرٌ له ومحبة من الله تعالى له وسوف يظهره الله على خصومه وينصر الله دينه ويعلي كلمته، مؤمناً بموعود الله ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج: ٤٠].

ثم إن التاريخ ليحني رأسه أمام تاريخ وخلق هذا العالم الرباني إكباراً له واحترامًا، وتقديراً لعظمته وشجاعته في مواقف الحق البطولية، فهو يعيش عظيمًا ويموت عظيمًا، لا يعرف حقداً ولا حسداً ولا بغضًا ولا ضغينة لأحد، بل وصل به الحال أن سامح خصومه وأعدائه ودعا لهم بالعفو والمغفرة، فله نفس عظيمة لا تصغر أمام التشفي والأحقاد، فعندما مكنه الله من خصومه عفى عنهم وسامحهم ودعا بأن يغفر الله لهم، طالبًا الأجر من الله وحده.

قال له السلطان بعد أن انكشفت الغمة عنه وانتهت المحنة وتوارت المعتزلة في حجورها كالعادة يطلب منه البقاء في جواره وفي قصره، أترغب عنا وفي جوارنا لتقصير بحقك، فقال له الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ سأصدقك القول يا أمير المؤمنين، إني لا أحبُ أن تكون أقسى عليّ من أبيك.

فقال الخليفة: كيف ذلك؟

فقال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ سامني أبوك فتنة الدين أمس، وأنت اليوم تسومني فتنة الدنيا بما تغدق عليّ وعلى أهلي من عطاياك، وقد نجوت من الأولى يا أمير المؤمنين وأخشى ألاّ أنجو من الثانية.

ففهم الخليفة وودعه وقال له أوصني؟

فقال يا أمير المؤمنين: "السفر قريب والطريق طويل والزاد قليل" فبكى الخليفة، وجعل يتمتم بها وهو يبكي.

وقد نجّى الله الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ من محنة عظيمة عصفت بمن حوله وسلم منها، طالت أيامها وامتدت شهورها واشتد عذابها، فابتدأت في عهد المأمون سنة

٢١٨هـ وانفرجت في عهد المتوكل سنة ٢٣٤هـ، وقد استمرت ما يبلغ "خمسة عشر عامـًا"، ومع هذه السنوات لم يتنازل عن مبادئه وهو تحت وطأة التعذيب والسياط، وكان يقول «أموت ولا أضلّ الناس من بعدي» فظهر معدنه وصدقه وتبوأ منزلة عالية عند ربه تعالى ثم عند الناس في زمانه وعند ولاة الأمر وصار مرجعـًا وعلمـًا من أعلام العلم والدين في زمن انتشرت فيه البدع والضلالات والمحن والفتن، فصار رَحِمَهُ ٱللَّهُ "إمام أهل السنة والجماعة" إلى زماننا هذا.

فمن أراد التوسع فليقرأ في ذلك ما سطرته كتب التاريخ والأقلام عن هذ البطل والجبل الشامخ العالم الرباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ فكانت وفاته مصيبة عظيمة على بغداد وما حولها، وحضر جنازته ودفنه خلقٌ كثير لا يحصيهم إلاّ الله تعالى، وحضرها الخليفة وجنوده وأمر أهل العراق بالحضور والتشييع لجنازة الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعم الحزن جميع المسلمين لفقدانهم هذا العالم الرباني، وهكذا انطوت صفحة من صفحات التاريخ مشرقة على سطور بيضاء وأخبار رجال وعبرة وأسوة، كلما فتحناها وقلبنا فيها النظر أمدتنا بالجديد والمفيد.

نسأل الله تعالى أن يجمعنا به في جنات النعيم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقـًا.

***

الفهرس

- تقديم ٥
- مقدمة ٧
- لماذا لا نقرأ؟ ٩
- مع القراءة ١٣
- متعة القراءة ١٨
- (١) عشاق الكتاب ٢٢
- (٢) عشاق الكتاب ٢٦
- (٣) عشاق الكتاب ٣٠
- غلاء الكتب ٣٣
- أقلام عوجاء ٣٦
- على أعتاب الروايات ٤٠
- الصداقة الحقيقية ٤٥
- أعداء النجاح ٥١
- مع المعلم ٥٤
- مع الاختبارات ٥٨
- رسالة إلى الطلاب ٦٣
- ما بين الاختبار وصلاة الظهر ٦٦
- مات طالباً ٦٨
- كتابك قيمتك ٧٠

■ التعصب الرياضي ٧٤
■ ثقافة التخريب ٧٨
■ زهرة مجالسنا ٨١
■ الترتيب في الحياة ٨٤
■ وانقطع الصوت الشجي ٨٨
■ أخيراً وجدت .. (السمط الحاوي) ٩٠
■ أبو سامر وموسوعته التاريخية ٩٥
■ لا تنسَ (إن شاء الله) ١٠٠
■ وجبت له الجنة ١٠٣
■ هكذا زعموا ... كذباً ١٠٦
■ شهادة شرف بمعركة الشرف ١١٤
■ بشائر للمرابطين ١١٧
■ وطن الوفاء ١٢٣
■ البيعة ١٢٨
■ رحل سلطان الخير ١٣١
■ الديسة .. مغان ومعان ١٣٣
■ تبوك الورد. . تسلبُ الألباب ١٣٦
■ رحلتي . . لمدينة الأخدود الأثرية ١٤٠
■ إمتاع النظر .. بقرية المقرّ ١٤٥
■ ثلاث وعشرون سنة ١٤٩

■ بين الصدّيق والفاروق ١٥٦
■ خامس الخلفاء الراشدين ١٦٢
■ إمامٌ في محنته ١٦٦
■ الفهرس ١٧٤

❊❊❊